عبد الباقي يوسف

روهات

روايــة

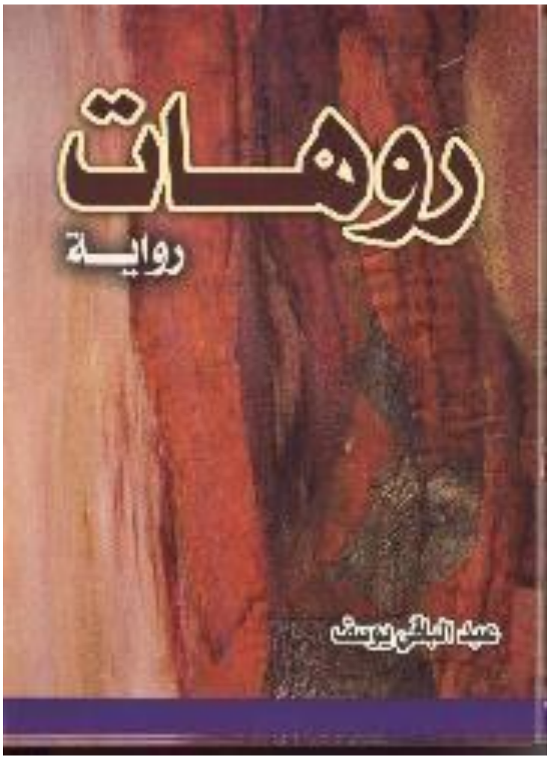

منشورات: دار المنارة – بيروت، دمشق 2006

إلــى: بريهــان..

زوجتـــي

هل سيكون قادرا على العيش بقية حياته بشكل جيد دون امرأة، هل سيستطيع وكأنه يعيش في عالم بلا نساء، أو أن التي يبتغيها لا وجود لها على صفحة هذا العصر.

هل حقا أن ثمة ظلمة في حياة الرجل مهما بدا له أنه في ضوء لا يبددها إلا حضور زوجة ورفيقة روح.

خطواته تمتد به نحو أعتاب الخامسة والأربعين وأقاويل كثيرة تثار حول خصوصية حياة العزلة التي يعيشها في قلب العاصمة، منها تسره ومنها تحرجه، وهي تصل بأشكال وتلميحات مختلفة سواء مباشرة أو غير مباشرة.

صديقه مدثر الذي تخلى عن شهادته الجامعية بعد الزواج بسنتين وغدا يعمل في التجارة الحرة يحذره من الارتباط كلما يلتقيان في مكان ما أو يزوره في البيت.

آخر مرة زاره منذ أسبوعين في العاشرة والنصف ليلا، قبل أن يجلس طلب إليه أن يستضيفه تلك الليلة حتى يكون بعيدا عن زوجته ولو لليلة واحدة، لم يملك إلا أن يرحب به قائلا: أستضيفك سنة يا عزيزي بدلا عن ليلة.

حينها قال وهو يلقي جسده المتعب على الكنبة: أنت محظوظ يا حنيف لا نك لم تتسرع مثلي وتقذف نفسك في هوة الزواج، لو أنك تزوجت في الخامسة والعشرين مثلا لم تكن لتحلم بأنك سوف تصدر كتابا واحدا، ولم تكن لتحلم بكل هذه

الأضواء المسلطة عليك. ثم نهض نحو المطبخ يمد يده إلى ركوة القهوة، وحنيف يتبعه بخطواته:

أنت الآن أهم ناقد في البلد، كل هذا حصل لا نك اتخذت الموقف المجدي وقررت أن تنذر حياتك لعملك فقط، عملك ولا شيء غيره.

امتدت يد حنيف تشعل الغاز: بالنسبة لي يا صديقي العزيز وقبل أن أبتلي بهذا الزواج الذي هو أكبر طامة تعثرتْ بها حياتي، كنتُ أعتبر أن أي زواج فاشل أهون على الرجل من بقائه عازبا، ووجود أتعس امرأة في العالم إلى جانب أتعس رجل خير من بقائه وحيدا دون تلك المرأة التي لا تعجبه، كنت أقول بأن المرأة لولم تكن تسر فإن الأولاد عندما يأتون سيملئون علي الحياة بهجة، لكنني اكتشفت بأن الزوجة في البيت هي رأس السعادة، وهي رأس التعاسة.

بدأت القهوة تغلي ومدثر يحركها بالملعقة الصغيرة ويتذوق طعمها: منذ لقائي الأول بها أدركتُ أن / مَيس / غبية، أحيانا كنت أرى بأنها أغبى امرأة أنجبتها حواء، لكنني رغم ذلك كنتُ أواسي نفسي بعدم وجود أفضل منها في حياتي وكأنني كنتُ على شفا هوة وأن مَيس هي التي ستنقذني من تلك الهوة، كان غباؤها يزداد يوما إثر يوم وكنت أقنع نفسي بالانسجام مع ذاك الغباء حتى اعتدتُ عليه لا نه جزء لا ينفصل عن شخصيتها.

امتدت يد حنيف اليمنى كسلحفاة إلى فنجانين، سكب مدثر قليلا في فنجان، ثم قليلا في الفنجان الآخر، وعاد يسكبهما بالتساوي كأنه يتفنن من أجل تقديم قهوة مضبوطة، فحمل حنيف السفرة وعادا إلى الصالون: كنتُ في كثير من المواقف أتعمد التغابي حتى أتساوى معها في نمط التفكير لتجنب إشكاليات كثيرة لا تحُمد عقباها، وسنة بعد سنة كان علي أن أقبل بهذا الدور حتى تستمر حياتي الزوجية بعد أن كثر في بيتنا أطفال. ويا ليتها أنجبت لي أطفالا يسرونني ولو قليلا، أو يخففون قليلا من معاناتي مع أمهم.

صمت قليلا، ثم أخرج علبة دخان ملء الكف من جيبه وسحب رأس سيجارة، أشعلها وصار ينفث الدخان في فضاءات الصالون ويحتسي القهوة كأنه في مملكة خاصة به ولا أحد يراه أو يسمعه وأضاف بنبرة خافتة كأنه يحدث نفسه في حالة عميقة من التأمل: تغرس فيهم سمات الغباء، تغرس فيهم سمات شخصيتها حتى أنني أحيانا أراهم صورا مصغرة عنها فأتخيل حال زوج ابنتي في المستقبل كحالي.
أنجبت لي ست بنات، كل سنة كنتُ أقول لها بأننا سنحدد النسل، يكفي، كنت أتفاجأ بها بعد شهرين تقول: أنا حامل، قد يكون ولدا.
اعتدتُ سماع هذه العبارة التي ما عادت تعني لي شيئا لا ن الزمام خرجت من يدي وبات من الطبيعي علي أن أسمع عبارتها كل سنة: أنا حامل، قد يكون ولدا. – وكأنه

فطن للتو بأن رجلا ما يصغي إليه فقال: بيني وبينك حتى وجود الولد منها لم يعد يهمني – تخليت من أجلهم عن إجازتي الجامعية وكأنها لم تكن، يا خسارة سنوات الدراسة الطويلة تلك، نسيتُ القراءة، حتى كتبك التي تهديني إياها فإنها تبقى ستة شهور حتى أنهي قراءتها، لم يعد أمامي غير أن أعمل وأرهق نفسي في العمل للبيت الذي كلما أعطيته صرخ بي: هل من مزيد.

وأي وظيفة يمكنها أن تلبي كل الحاجات المتراكمة على كاهلي، وبكل برود توبخني وتقول بأنها كانت تعيش في بيت أهلها في رغد، لكنني أفرض عليها عيشة المتسولين، أحرمها من الثياب الجديدة والهدايا والرحلات والسهرات الاجتماعية، ورغم ذلك تحتملني ليس من أجلي، بل من أجل الأطفال.

لكنها في حقيقة الأمر تريد أن تبقى محفظتي دوما فارغة حتى لا أفكر بالزواج، تقول لا خواتها بحضوري وبذاك البرود الذي لا أطيقه: مادام يرزخ تحت طلباتنا فإنه لن يرى غير زوجته وبيته، النقود هي أجنحة الرجال للطيران من البيت والتحليق فوق بيوت أخرى.

بقي علي أن ألبي طلبات تزداد على كاهلي يوما إثر يوم حتى رأيتني دخلت حياة جديدة لم يكن لي عهد بها وانسحبتُ من حياتي التي ألفتها تاركا كل الأحلام ورائي.

ولم يعد لي عزاء من كل ذاك الماضي المجيد الذي كنت أعيشه غير هذه السهرات التي تجمعني مع أصدقائنا كل شهر وأستعيد فيها ولو شيئا من رائحة حرية ومجد الماضي الذي يرفرف في فضاء مخيلتي كحلم بعيد لا تطاله يداي.

ثم بعد قيل وهو يفرغ من القهوة والدخان حدّق في عينَي حنيف وتمتم بنبرة هادئة وكأنها تنسحب من عمق بئر:

إن أردت أن يلحق الضرر برجل بينك وبينه خصومة لا تقل له غير: رزقك الله بزوجة غبية.

يكفيه ذلك أذى.

الآن أحس مدى استعجالي في هذا الأمر، كنت دوما أظن بأنني تأخرت كثيرا وعلي الالتحاق بامرأة تصنع مني رجلا، الآن أرى كل ذاك الوقت المتسع الذي كان كافيا جدا لا نظر في هذا الأمر بمزيد من التأني.

كل هذه العبارات تتردد صداها في مسمعه كلما تقع منه نظرة على امرأة ويخفق قلبه لها فيمضي كأنه بلا قلب.. بلا نظر.

* * *

في العام الماضي عندما كرمته رئاسة الجامعة بمناسبة صدور كتابه السادس الذي ميزه بالقراءة الواعية للروايات التي تناولها، وبنضج الرؤية النقدية التي يكتب بها، دنا إليه صديقه مناف وسط الحشد وأضواء كاميرات التصوير وضجيج التكريم قائلا بصوت شبه مرتفع وهو يكاد يلصق فمه بأذنه: / الكتاب من حِلية الملائكة / يا صديقي، هذه السعادة البادية عليك بهذه المناسبة التي أنت نجمها كانت ستتضاعف فيما لو كانت إلى جانبك زوجة، أولاد يفتخرون بكل هذا التكريم الذي كانوا سيتقاسمون حلاوته معك ويعتبرونه تكريما لهم أكثر مما هو لك.

كنت ستشعر بسعادة أخرى غدا في البيت عندما كانوا يشاركونك مشاهدة هذا التكريم على التلفاز، كان الأولاد سيفتخرون بك أمام أصدقائهم وهم يخبروهم بموعد بث التكريم، وكانت زوجتك تخبر كل أقربائها وصديقاتها، تعتز بك وكأن التكريم هو لها ولا ولادها.

سعادتك الآن يا صديقي ناقصة لا نك تشعر أن لا أحد من صلبك يشاركك بها.

ثم أردف بنبرة أكثر جدية شبيهة بأمر: يا أخي إن كنت لا تستطيع أن تجد لنفسك امرأة من كل هذه الجامعة التي أنت أستاذ نجم فيها، دعنا نتصرف، / مهجة / سوف تختار لك زوجة مناسبة من بين صديقاتها الكثيرات.

قال له مبتسما: هل تظن أن بمقدور الرجل أن يقع على امرأة كل يوم بحجم / مهجة / كما وقعت أنت عليها ؟!

كان دوما لا يخفي عنه حقيقة مشاعره بأنه لو وجد امرأة شبيهة بمهجة لما تردد من الزواج بها لحظة واحدة.

يذكر أنه بعد تخرجه بثلاث سنوات جاءه مناف يقول بأنه تعرف مصادفة على فتاة سحرته بكل شيء فيها، كان يتحدث عنها كما لو أنه يتحدث عن امرأة ليس لها وجود إلا في الخيال، وشاء أن يعرّ فه بها عندما زاراه في البيت ذات أمسية وأمضيا عنده ساعتين، عندها أدرك كم أنه محظوظ بتلك المرأة، وكم أنها محظوظة به.

قال مناف لحظة دخولهما: هذه مهجة، وجدتها على الأرض، ثم بعد الجلوس شرح له كيف أنه فقط في الشهر الماضي تعرف عليها عندما زارته في العيادة بسبب بعض تشنجات في المعدة، وعرف بأنها معلمة تخرجت للتو، تدرّس في قرية نائية، لم يكن وضعها الصحي يستوجب المراجعة لكنه طلب منها أن تعود بعد أسبوع، عندما عادت قال بأنه رأى فيها زوجة المستقبل وقد أمهل نفسه أسبوعا حتى يتخذ قرارا كهذا.

وصارحته بأنها شعرت معه ذات الشعور وأدركت أن عودتها هذه ليست من أجل المراجعة قدر ما هو بسبب أمر آخر لا يمت للعلاج بشيء.

كان تنفيذ القرار سريعا لم يستغرق أكثر من ستة شهور لا ن كل واحد أدرك بأنه يعرف الآخر بما يكفي لا تخاذ قرار مصيري كهذا.

ما يزال يذكر تفاصيل ذلك جيدا كأنه وقع ليلة البارحة رغم مرور عشر سنوات عليه وإنجاب طفلة هي الآن في الثامنة من عمرها، طفلة هي شعلة من موهبة نالت السنة الماضية جائزة أطفال الشرق الأوسط الأولى بالعزف على آلة البيانو، ووجهت الدولة المستضيفة دعوة لها ولا بويها لحضور حفل التكريم.

قال مناف وهو يقطع كل هذا السرد في مخيلته: ما عليك غير أن تكون جادا ياعزيزي وتبحث، عندها ستجد المرأة التي تجعلك تندم على كل يوم عشته في ظلام دونها.

بعد انتهاء الحفل رجع إلى البيت منفردا بعد أن رأى الأصدقاء والزملاء أن يدعوه حتى يأخذ قسطا من الراحة بعد إرهاق حفل التكريم الذي استغرق نحو ست ساعات.

في الطريق اعتراه إحساس بأنه يمضي في يم بلا قرار، ولا ول مرة راوده شعور بالتيه لم يعد يدري معه أين يتجه رغم أنه يمضي في طريق البيت، لكن قوة شخصيته أنقذته من التشتت فلبث مستمرا في ذات الطريق وهو يردد في نفسه: تذكر دوما يا حنيف أن الهموم لا تتكاثر على شخص إلا إذا أرادت أن تسقط عنه، كلما اشتدت كان وقعها أخف على النفس.

تمهَّـل قليلا يسترد بعض هدوء نفسه، تسربت منه نظرة إلى فراغ السيارة، ابتسم متخيلا للحظات امرأة تبرك جواره، تهنئه بالتكريم وصدور الكتاب الجديد الذي أهداه إليها..

طاب له أن يستغرق في الخيال كأنه يعوم في بحر هادئ. بعد قليل من العوم تمتم لها: ثلاث سنوات وأنت تعينينني على العمل في هذا الكتاب حتى خرج للنور، كنتِ تلملمين قصاصات متناثرة وتدونينها في الحاسوب، كنتُ أحيانا أنهض في الثالثة صباحا عندما توقظني فكرة فأكتبها على قصاصة في الفراش، في الصباح عندما أنهض أراها في الحاسوب، كنتِ أحيانا تأتين لي بأفكار جديدة تغني الفصول، أجل لقد كنتِ شريكتي الحقيقية في هذا العمل وكيف لا أهديه لك.

يهتف طفله من المقعد الخلفي: متى يظهر الحفل في التلفاز بابا حتى أخبر أصدقائي في المدرسة.

يتأوه بحزن وينتابه شعور عميق باليتم وقد أحس للتو أن لا أحد شاركه هذا التكريم تلك المشاركة الحميمية العميقة التي تهز القلب بكل مافيه من خفقات، وكما أنه يمضي وحيدا في سيارته، فإنه كذلك يمضي وحيدا في نجاحاته وفي الحياة برمتها، وبدا له للحظة أنه يمضي وحيدا في عتمة خريف طويل في هذا الوقت الذي أحس فيه كم أنه تعيس لا ن لا وجود لا مرأة في حياته، كل تلك التجارب والعلاقات الحميمية مع المرأة ذهبت هباء، إنه الآن يعيش دون امرأة، دون حب، دون صوت

أنثوي يطمئن عليه حتى من سماعة هاتف على بعد آلاف الأميال، كم هو مؤلم شعوره القهري أنه بلاأحد يسأل عنه، دوما كانت ثمة امرأة في مختلف مراحل حياته، كانت ثمة امرأة يعيش معها حميمية الحياة والعلاقة المتبادلة بين الذكورة والأنوثة، بين وجهَي الإنسان المعلنَين والخفيَين، وبدأ يتذكر تفاصيل الرسائل القصيرة والمقاطع الموسيقية المنتقاة وصور الزهور المحببة إليه التي يتلقاها منذ سنة من خلال هاتفه المحمول، كانت تصل وكأنها لم تصل، يتصفحها على عجل ويتركها في ذاكرة الجهاز، أحيانا كان يستمتع بالاستماع إلى المقطوعات الموسيقية وما إن تنتهي حتى ينسى كل شيء وكأنها بُثت من إذاعة.

إنه يخمن بأنها على الأغلب إحدى طالباته اللواتي هن في سن المراهقة، تفعل ذلك لمدة وتنصرف كما لو أنها تلهو بلعبة مسلية في وقت فراغ، حدث له ذلك كثيرا خلال سنوات وجوده في هذه الجامعة. كان دوما يصر على تجاهلهن كأن شيئا لم يكن، حتى لو تمردت إحداهن واعترضت طريقه أو وقفت له صباحا أمام باب بيته ليضطر أن يحدثها فإنه يبتسم قائلا لها: لو تزوجت لكانت ابنتي الآن بعمركِ.

يقول ذلك وهو مدرك بأن الطالبة على الأغلب تكون معجبة بشخصية معلمها، ليس معلمها في التعليم فقط، بل في كل مكان، تكون معجبة بشخصية مديرها في العمل حتى لو كان طبيبا أو مدير دائرة، أو حتى صاحب مصبغة ثياب مادامت هناك إمكانية لتظفر بالزواج منه، لا تكون معجبة بالشخص قدر إعجابها بالمكانة التي

يشغلها، قد يكبرها بثلاثين سنة، أو يصغرها بثلاثين سنة، قد يكون جميلا، أو يكون دميما، قد تكون جميلة، أو تكون دميمة، وعندما تخرج من تحت هذه الإدارة فإن كل شيء ينتهي بالنسبة إليها، وهو أيضا عندما ينتقل من هذه الإدارة فإن مشاعر هذه المعجبة تنتقل إلى المدير الجديد لا نه الآن هو الذي يشغل هذا المكان.

وهو يدرك بأن الأمر لا يخلو أمام فئة من المدراء أن تستغل هذه المواقع لبناء علاقات متعددة مع مثل هذا النمط من الفتيات اللواتي على الأغلب يعانين من نقص في عناية الآباء بهن، وكذلك من فراغ عاطفي أكثر قوة، هنا يدخل مثل هذا المدير في دائرة الإدمان فيميل إلى تبديل مرءوسته كل فصل سواء كان عمله في دائرة حكومية أو في عمل خاص، وهو يرفض المرأة التي لا تستجيب له منذ الأيام الأولى حتى لو تسبب في قطع رزقها وفصلها نهائيا من العمل فقط لا نها لا تعاني نقصا، ولا تعاني عقدة نفسية كتلك التي تسمح لها أن تلبي له رغبته.

مثل هذه المرأة التي يحلو له أن يقول بأنها / نبيلة / تضحي بعملها وحتى بمستقبلها المهني من أجل ألا تفقد توازنها التي نمت عليه، لا نها عند الخطيئة الأولى يمكن أن تتجه إلى أقرب نهر فترمي نفسها به، أو إلى أقرب عجلات سيارة، أو إلى أقرب مأخذ كهرباء بدل عودتها إلى بيتها وعائلتها مسودة الروح.

عندما غدت هذه الرسائل عادة، تذكر ذات مرة أنه حين ذهب إلى مكتب الشركة ليسدد قيمة فاتورته، سأل الموظفة عن اسم صاحبة الرقم الذي ترد منه هذه

الرسائل، فأبت ذلك لا ن التعليمات لا تسمح لها بإعطاء مثل هذه المعلومات، حينها قالت: ليست لدينا صلاحيات بذلك يا سيدي، أمّا إذا كانت هناك إزعاجات مستمرة ترغب في أن نوقفها لك، يمكن لنا أن نعالجها في حال تقدمك بشكوى رسمية إلى الشركة، سوف نقوم بإنذار صاحب الاشتراك وننبهه حتى لا يكرر هذا الإزعاج.

عندها قال بأن ذلك ليس أكثر من رغبة في المعرفة ولم يصل الأمر إلى تقديم شكوى. لكن في ذات اللحظة أدرك معنى أن يهتم به شخص ويبقى يذكره ويتواصل معه رغم كل ذاك التجاهل. ثم مالبث أن نسي الأمر وشعر بشيء من حرج أمام نفسه لا نه بادر إلى سؤال كهذا.

توقفت عجلات السيارة جانب البيت ذو الأضواء الخافتة، نزل بشوق لدخول مملكته الهادئة، وقبل أن يتجه تلقاء الباب، أنس طفلا في نحو الربيع السابع قبالته.

تسمّرت به قدماه على الأرض وعيناه تحدجان هيئة الطفل بنظرات مريبة، لبث الطفل أيضا يبادله نظرات فيها الكثير من العتاب دون أن يتبادلا كلمة واحدة.

تسمّرا وجها لوجه، راوده إحساس مباغت بأنه جبل يقف أمام صخرة من صخوره، وفي محاولة منه لتجاهل الموقف مد قدمه صوب باب البيت بخطوة وئيدة كأنه في طريق وعرة، عندذاك بادره الطفل بصوت كله ثقة: ألم تعرفني ياسيد حنيف، هل

نسيتني، أنظر إلي جيدا، ليس لمصلحتك أن تنساني مهما تراكمت عليك الأعمال، مهما بدا لك بأنك ناجح في عملك وناضج في الحياة.

وأردف بذات اللهجة العتابية الواثقة: هاقد جئت لا مد لك يد المساعدة في وقت يعجز فيه العالم كله أن يقدم شيئا يخفف عنك. صحيح أنني طفل صغير، وأنك رجل بلغت مرحلة النضوج تقف على تجارب حياتية وخبرات تعلمت منها كثيرا، لكن رغم كل هذا الفارق بيننا ليس لك غيري ياصاحبي وليس لي غيرك مهما ابتعد أحدنا عن الآخر، ومهما أراد أحدنا أن يتخلى أو يتعالى على الآخر.

لم تكن ملامح هذا الطفل الوديع غريبة على مخيلته، ومن جديد صار يحدّ ق في سمات وجهه تحت الأضواء الخافتة في الشارع محاولا أن يسترد في ذاكرته أين سبق له أن رأى هذا الطفل، وما الذي أتى به في هذا الوقت المتأخر من الليل وهو طفل صغير كان من المفترض أن يكون نائما الآن كأقرانه، ما الذي يريد منه حتى يعترض عليه الطريق أمام باب منزله.

تتالت العبارات على مسمعه كتلقين: لا تشردبي طويلا يا حنيف، هذا لا يسبب لي أي إزعاج، كنتُ واثقا بأنك نسيتني ولن تتذكرني بهذه السرعة، أنا الذي ما غبتَ عني لحظة واحدة خلال كل فترة الفراق هذه التي تسببتَ بها أنت، كنتَ تظن بأنني لم أعد ألزمك بشيء ولذلك تخليت عني، لكنك لم تكن على هدى يا صاحبي، كل ما لقيته في حياتك من شقاء وتشتت وظلام كان سببه تخليك عني وإصرارك على

نكران أنهار جمائلي عليك، لكن لا بأس فلا أحد لك في كل هذا العالم غيري، ولا أحد لي في كل هذا العالم غيرك.

لم تكن لديه أي رغبة لتبادل كلمة واحدة معه، بدا كله رغبة للإصغاء فحسب، ولا يدري أي أنسام بدأت تهب عليه وتجعله يشعر بنشوة غامرة، أنسام بدت تحمل رائحة عزيزة لديه.

تقدم إلى الطفل الصغير ليكون أكثر قربا منه لعله يتعرف إليه أكثر، ويشكره لا نه بالفعل استطاع أن يقدم إلى نفسه نسمات من النشوة في هذه اللحظات القليلة، ولكن الطفل هرولت به قدماه إلى أن وارتاه في سحر العتمة الحالكة.

لبث واقفا علّ الطفل يعود إليه وهويحس برابط قوي بينهما، وبحاجة ماسة لا ن يصغي إليه طويلا بعد أن يدعوه للدخول إلى البيت، ولكن طال انتظاره دون أن يظهر الطفل فولج البيت بخطا وئيدة وهويشعر بأنه كبر ونضج عشر سنوات في دقائق معدودة، وراح يستذكر في مخيلته ملامح هذا الطفل التي بدت قريبة إليه: أجل لقد كان قريب الشبه بك يا حنيف ليس من ناحية التفكير فقط، بل في الشكل أيضا، كان يحدثك كما لو أنه يماثلك في السن، يناديك باسمك وكأن بينك وبينه علاقة حميمة، لكن لماذا جرى منك عندما أردت الدنو منه ؟!

أيقظه من شروده رنين هاتفه المحمول منبها بوصول رسالة، لا يعرف لماذا خفق قلبه ورغب بقوة في قراءة الرسالة القصيرة، دخل مكتبه ولدى إنارة الضوء فتح الرسالة

وبدأ يقرأ بلهفة: مبارك ياسيدي حفل التكريم الذي تستحقه، مبارك الكتاب الذي قرأته حرفا حرفا ثلاث مرات لدى صدوره الشهر الفائت، قطعت مسافة ألف كم لا كون حاضرة في هذا الحفل.

أعاد قراءة الرسالة للمرة الثانية وقد وقع منه جسده على أقرب كرسي. أغمض عينيه ثم بعد قليل نظر في الجهاز وأعاد الرسائل الماضية التي وردت من هذه المرأة التي أنقذته في هذه اللحظات البائسة من شعوره العميق بالعزلة بعد أن تخلى عنه حتى الطفل الذي بدا أنه بحاجة ماسة إليه: أنت أعظم رجل رأته عيناي.

- مهما بدت حياتي مؤلمة فإنها تبقى مشرقة لا نها تحتوي على رجل مثلك.
- ليس من حقي أن أسألك الرد، لكن ليس من حقك أيضا أن تمنعني من أن أعبر عن شعوري نحوك.

كان قد قرأ هذه الرسائل من قبل قراءات سريعة، لكن الآن يشعر بأنه يقرأها ويكتشف معانيها لا ول مرة.

وعاد يستمع المقاطع الموسيقية التي أرسلتها وللتو انتبه إلى المقطوعة المفضلة لديه / أنا لك على طول خليك لي، خذ عين مني وطل عليّ، وخذ الاثنين واسأل فيّ /.

أعاد سماع المقطوعة التي خففت عنه وراحت أصابعه تثبت المقطوعة لتكون نغمة رنين الهاتف، ثم بدأ ينظر في اللوحات ومناظر الزهور التي أرسلتها، وراحت أصابعه

تثبت في الشاشة منظرا لزهرتين متفتحتين على جذع واحد، مال صوب المسجلة، امتدت أصابعه إلى زر لتتناهى مقطوعة / رجل وامرأة /.

ولم يدر كيف تدفقت صفحات أكثر أيام حياته عذوبة وألما في وقت واحد، وزلزله اللحن، عادت / زهرة / بكل حضورها وقوتها إلى ذاكرته، زهرة التي تركت حضورا لا يمكن نسيانه بأي حال، ومهما طال الزمن.

كانت مرحلة الانفتاح على الحياة، مرحلة الاكتشاف الأولى التي يدين لها بكل ماهو فيه الآن، مرحلة التأسيس الأولى، وكيف ينسى تلك المرأة المذهلة العجيبة التي كانت بطلة تلك المرحلة، المرأة الأولى التي لها الفضل الكبير عليه، وهو يعتبرها أستاذته التي مايزال يتعلم منها حتى هذه اللحظة، كانت تلك المرأة الغريبة مدرسة كاملة تعلم فيها كل شيء في وقت مبكر، وأمام مجرد ذكرها لا يملك إلا أن يذرف الدموع، ويقف بمزيد من الخشوع في حضرة ذكراها، الحياة دوما تأتي بأناس عظماء، من أجل أن يكونوا عزاء لا ناس آخرين.

كانت الحياة تفتح حضنها للتو وتستقبله، وهو الذي حصل على شهادة البكالوريا، ويحلم أن يدرس سنتين في معهد إعداد المعلمين في / الحسكة / التي تبعد ثمانين كيلومترا عن مدينته، لا نه المعهد الوحيد في المدينة وينهال عليه طلاب من كل المناطق والنواحي البعيدة والقريبة.

يتخيل قضاء سنتين ثم يتخرج ويؤدي الخدمة الإلزامية، بعدها يعود إلى القامشلي الحبيبة، يتعين في إحدى مدارسها معلما. حمل حقائبه وجاء إلى الحسكة يدرس في المعهد، يومها تعرف على هفال، ودارا الذين قدما من عامودا واستأجر معهما غرفة في إحدى الأحياء الشعبية.

يذكر جيدا أن الساعة كانت تشير إلى نحو الخامسة من أمسية يوم الثلاثاء، وكان الجو ممطرا في الأسبوع الأول من شباط، يمشي مع زميليه في شارع الخابور للترفيه عن النفس، فجأة أحس بصدمة من الخلف فقد على إثرها الوعي، لا يدري بالضبط ما الذي حدث عقب ذلك، بعد ساعتين فتح عينيه ليرى نفسه ممدا على سرير وثمة امرأة خمسينية تجلس جوار زميليه في الغرفة، نظر حوله وتذكر لحظات إحساسه بالصدمة، عندئذ نهضت المرأة التي كانت جالسة على كرسي بثيابها الممرغة بالوحل، مدت يدها وقبلت كفه بأمومة معتذرة عما وقع منها، للتو استطاعت ذاكرته تسترد أنها صدمته بسيارتها، وتخيل بأنها حملته على ذراعيها إلى السيارة، واتت به مع هفال، ودارا إلى عيادة طبيب خاص.

كانت ثيابها الممرغة توحي بذلك.

نظر إليها ولا يعرف لماذا انفجرت دموع من عينيه، فمدت المرأة منديلها وأخذت تمسح الدموع مكررة اعتذارها الشديد واستعدادها لكل ما يترتب على هذا الحادث، لكنه لم يفكر بشيء من ذاك القبيل، كانت المرة الأولى التي يشعر فيها

بخصوصية الإنسان النبيل، وكذلك بحجم العذوبة التي يمكن لا نسان أن ينشرح صدره بها.
شكرها على كل تلك الكلمات وعلى إسعافها، وقدم اعتذاره لا نه هو الذي ما كان عليه أن يمشي في منتصف الطريق، قال بأنه يأسف شديد الأسف على كل هذا القلق الذي سببه لها، نهض من السرير بعد أن قال الطبيب بأن الأمر لا يحتاج إلى أي عناية، وكان الإغماء نتيجة الصدمة المفاجئة فقط.
عند ذاك مدت المرأة يدها إلى حقيبتها وأخرجت مبلغا من المال قائلة بأنها تقدمه هدية، ولكنه لم يمد يده وهو يكرر اعتذاره على ضياع وقتها، وكان عليه أن يمشي على الرصيف، وعندما رأته مصرا على الرفض قالت بأنها سوف توصلهم إلى المكان الذي يذهبون إليه. برحوا جميعا العيادة، عندها وقفت المرأة في قلب المدينة واشترت له ثيابا بدل التي تسببت في تمزيقها، إضافة إلى بعض الحلوى والهدايا.
كان الحادث الأول الذي تلقاه في حياته، ولبث يشرد كيف أن الإنسان يمكن له أن يرتقي في درجات النبل والشهامة، تخيل أن ذات الحادث يقع معه وهو يصدم طفلا بسيارته، يسعفه ويقضي ثلاثة أيام في المشفى بانتظار أن يخرج الطفل سالما وعند ذاك يأخذه إلى السوق، يبتاع له ثيابا وحلوى وهدايا ويأخذه إلى البيت مكررا اعتذاره وأسفه على ما وقع منه دون قصد.

أمسية يوم الخميس كان عليه كالعادة أن يذهب إلى البيت لقضاء يوم العطلة الأسبوعية، وعاد صبيحة يوم السبت ليرى ذات المرأة تزوره في المعهد وتعرض عليه أن يقبل عزيمتها على الغداء، حتى تتخلص من شعورها بالذنب نحوه، قالت بأنها تعيش في حالة من القلق والفزع كلما تتذكر مشهد الاصطدام، وتظن أنه لم يسامحها، وقد استأذنت مدير المعهد بعد أن شرحت له عن الحادث الذي وقع منذ أربعة أيام.

رأى نفسه مضطرا على الموافقة، فأخذته من يده وخرجا من المعهد.

دخل بيتها وعرف بأنها امرأة أرملة في الخامسة والخمسين من عمرها اسمها زهرة، تملك هذا البناء المؤلف من ثلاث شقق وقبو، إضافة إلى شقة أخرى في منطقة مجاورة، وتعيش من إيجار هذه الشقق مع القبو بمفردها، لأن أولادها الثلاثة يقيمون مع زوجاتهم في بيوت مستقلة ولا يرغبون في إزعاجها تجنبا للمشاكل التي قد تحدث بين زوجاتهم وبينها، ولكنهم بين حين وحين يقومون بزيارتها.

ورأى امرأة تعمل في البيت قالت بأنها إنسانة عزيزة تساعدها في العمل بالبيت، وعندما قال بأنها خادمة، أجابت: ياعزيزي، نعم هي تعمل لقاء راتب، لكن لا أستطيع أن أقول عنها خادمة، فهي تؤنسني وتملأ الفراغ الطويل الذي أعيشه.

وبدأ يلاحظ كيف أن هذه المرأة تشاركها الطعام والشراب على مائدة واحدة وكأنها بالفعل صديقتها وليست خادمتها.

لبث هناك حتى المساء وقبل أن ينصرف طلبت إليه أن يأتي ويسكن القبو في البناء الذي تسكنه، فهو غير مؤجر هذه الأيام لحسن حظه، وسوف تقدمه هدية له حتى ينتهي من دراسته، وكررت على مسمعه بأنها ماتزال تشعر بإثم نحو ما بدر منها في ذاك الحادث، وهي تتوسل إليه أن يقبل ذلك حتى تشعر براحة، وبتخلص من الشعور العميق بالإثم كلما تتخيل الألم الذي سببته له.

أمام هذا الإلحاح لم يكن أمامه إلا أن يبدي موافقته، وفي اليوم التالي جلب أغراضه وودع هفال ودارا، وجاء يقيم في القبو الشامي.

كانت الخطوات الأولى نحو حياة جديدة ونحو أول حب عميق صادف حياته، وأكثر علاقة تركت لغزا غامضا لديه.

كان يشعر في أعماقه بميل عميق إلى أن يسمع صوت هذه المرأة التي تكبره بنحو أربعة عقود، كانت امرأة بالغة الجمال، وكان العمر يزيدها إشراقا وجمالا، تضع نظارة طبية على عينيها، وتقود سيارتها كأنها طبيبة، ولكنه لم يكن ينظر إليها إلا وهي ملكة، كان يشعر بأنه في حضرة ملكة لا ن تصرفاتها كلها كانت تشير بأنها تنتمي إلى أسرة عريقة أصيلة، حتى أنه ذات يوم أخبرها بما يراه فيها فضحكت ضحكا

عميقا كعادتها عندما تكون رائقة وقالت كأنها تشدو بأغنية: ربما هناك شيء من هذا القبيل في تاريخ أسرتنا، لكني لا أهتم به لا نه لا يعني لي شيئا هاما.

كانت شديدة البساطة، تعلمه كيف يمكن للإنسان أن يعيش حياته دون منغصات بالضحك والابتسامة حتى في ظروف شديدة القسوة: لا تفكر بشيء يا حنيف، دع كل شيء للأقدار، لن يأتي إلا ما خططته لك الحياة.

وكانت تدعوه بين حين وحين لزيارتها في الشقة مساء عندما لا تكون مرتبطة بمواعيد صديقاتها اللواتي يزرنها وتزورهن، حتى أنها أعطته خطا من هاتفها، وكل ليلة تمضي معه ساعة من حديث هاتفي وتقول بأنها تتحدث وهي مستلقية في سريرها.

بعد ثلاثة شهور من إقامته تأكد بأنه تعلق بهذه المرأة وولم يعد قادرا أن يخفي عن نفسه رغبته الجنسية القوية بها، تلك الرغبة التي داراها عن نفسه، ففي الشهر الماضي بينما كانت تطلعه على ألبوم صورها، وقعت عيناه على صورة بالغة الجاذبية فاستأذنها أن يحتفظ بالصورة، قال بأنه يريدها للذكرى.

أخرجتها من الألبوم وقدمتها له وهي تنظر في عينيه نظرة سؤال غريب، ولمح هو الآخر أن رعشة تسربت إلى نبرة صوتها، وأن لونها تغير بعض الشيء، فأخذ الصورة وخرج على عجل وهو ينظر إلى الأرض دون أن ينبس ببنت شفة، عندما فتح باب القبو أول شيء فعله هو أن وقع على الصورة بقبلات ساخنة، وكانت الصورة في بعض اللحظات تتحول إلى جسد حي بين يديه، فيحدثها ويروي لها الليالي الطويلة

التي يمضيها وهي تكون مهيمنة على كل تفكيره، كم كان يرغب في أعماقه أن يناديها ولو مرة واحدة: زهرة. وتسمعه يلفظ الأحرف حرفا حرفا.

ذاك الاسم الذي يردده بينه وبين نفسه مئات المرات في اليوم، وعندما يضطر لمناداتها لا يملك إلا أن يقول: سيدتي.

وهو يشعر بكل دلالات هذه الكلمة ويعيش معانيها.

إنها عالم كامل من المعرفة الغائبة بالنسبة إليه، وكأن كل معارف العالم بين يديها، ولن يكون بوسعه أن يعرف شيئا إلا من خلالها.

يومها اكتشف / عبد الحليم / لا ول مرة في حياته، كانت تستمع أغنياته كثيرا وتقول بأنها معجبة شديدة الإعجاب بتلك الأغنيات العذبة التي تهز الأعماق، ولا يمكن للمرء إلا أن يتأثر بها، أحيانا تدندن مع أغنية وتدخل في حالة حب عميقة حتى أنه لا يملك نفسه فيخرج مضطربا، يعود إلى الصورة يقع عليها بالقبلات ويذرف دموع اللوعة والشوق.

كانت امرأة متدينة، أحيانا عندما يزورها في البيت يراها تصلي، أو تقرأ القرآن، وعندما لا تقرأ القرآن، تقرأ الشعر، وعلى الأغلب الشعر الجاهلي، يسمعها ويستغرب كيف لتلك الذاكرة أن تحفظ كل ذاك الكم الهائل من القصائد البالغة العذوبة، والقوية التعابير. كانت تنشد وكأنها هي التي كتبت تلك القصائد. ولم يملك إلا أن يستعير منها بعض الدواوين والمعلقات، وبالفعل استطاع أن يحفظ كما

جيدا من تلك القصائد التي تحفظها، ويروي على أسماعها ما حفظ، فتثني عليه وتبدي إعجابها الشديد به.

كانت مستقرة في إيمانها وتخبره كيف أنها جاهدت طويلا حتى تحافظ على عفافها، وهي سعيدة بذلك وتعيش حالة من السكينة، ولكن جاءت الخطوة الأولى التي شجعته عندما حلم بها ذات ليلة، حلم أنه ينام معها، كانت أجمل ليلة في حياته وكم تمنى لو تتكرر، بيد أن ذلك لم يحدث غير مرة واحدة.

ذات ليلة نظر إليها عميقا، وبادلته النظر، انجذب نحوها، ورآها تستجيب، ولا يدي كيف حدث ووقع على وجهها بقبلات ساخنة، لقد تحول الحلم في لحظة مباغتة إلى حقيقة، ونطقت الصورة التي كانت صامتة، بُثت فيها الروح، وفي لحظات انتبها معا إلى خطورة ما يفعلانه، فتراجعت المرأة وسارع خارجا.

عند الساعة الثانية بعد منتصف الليل وبينما هو شارد بما وقع طرقت عليه الباب ودخلت بفستان النوم الشفاف، مع دخولها ألقت بنفسها في حضنه وكأنها طفلة لبثا نحو نصف ساعة واقفين، وبغتة خرجت المرأة شاحبة.

استلقى على سريره بعد أن تحقق له ما كان يحلم به، أحس براحة هائلة تجتاحه، كانت المرة الأولى التي يطأ فيها امرأة، وراوده إحساس غريب بأنها باتت له، وأنه بات لها، ولا يتخيل أن يبتعد عنها يوما واحدا، وأمام هذا الإحساس رواده شعور بأن يتزوجا سرا تجنبا للإثم، وتصحيحا للخطأ الذي ارتكبه بحقها.

في اليوم التالي قبل أن يذهب إلى المعهد طرق عليها الباب، فلم يسمع لها صوتا، تكرر الطرق دون أن يجيب أحد عليه، أحس بشيء من الفزع، ولكنه مضى نحو المعهد وذهنه شارد، لبث ساعتين ولم يستطع الإكمال فطلب إذنا وعاد على البيت، طرق عليها الباب ولم تجب، عاد إلى البيت ورفع سماعة الهاتف وفبدا مشغولا، علم بأنها وضعت السماعة جانبا حتى لا يستقبل الهاتف أي اتصال.

في اليوم التالي تكرر الموقف وتكرر اعتذاره من المعهد، حتى أتى يوم الخميس ولم يذهب لا ول مرة إلى البيت، لم يكن يتخيل أن يذهب ويتركها دون أن يعرف شيئا عنها بعد تلك الحادثة وبدأت الشكوك تراوده فقرر أن يطرق الباب إلى أن تفتح أو يخبر الجوار عن غيابها. بعد طرقات متواصلة وصراخه المرتفع، انفرج شق الباب ورأى امرأة لا تشبه المرأة التي يعرفها.

تبادلا نظرات الهلع والإثم، قال وهو ينظر إلى الأرض خجلا: أنا آسف، سأفعل كل ما بوسعه أن يكفر عن خطيئتي، فكرت في الأمر طويلا، فكرت بكل ما يخطر ولا يخطر ببالك يا سيدتي. لا تتصوري بأنني سوف أتخلى عنك ذات يوم.

ولم تملك إلا أن أدخلته وعادت تلقي نفسها في حضنه وتبكي قائلة: لكن ماذا نفعل يا حنيف، لقد ارتكبنا إثما عظيما، وقع ما كنت أتجنبه طوال حياتي، أنا حزينة وتائهة هذا ما صنعه إثمنا ذاك يا حنيف.

فقال بشجاعة: أنا مستعد أن أصحح الخطيئة التي وقعنا فيها مهما كلفني من ثمن،
أجل أنا أحبك، وأعنتك على الوقوع في ذاك الإثم،

وأريدك زوجة، ليكن زواجا غريبا من نوعه في هذا العالم الغريب.

نظرت إليه بكل دهشة: كيف تقول هذا يا حنيف، ومستقبلك؟!

مستقبلي، أي مستقبل يا سيدتي هو ذاك الذي يكون بعيدا عنك، سأكون أسعد إنسان على وجه الأرض وأنا أنظر إليك كل يوم، إنه الحب الأول يا سيدتي الذي يأخذ معه كل شيء.

ولكنها مغامرة يا حنيف، مغامرة مرعبة لا أعرف كيف ستتحول إلى واقع، وكيف سيكون بوسعي أن أنسجم معها.

لن نعلن هذا الزواج حتى لا يسبب لك إحراجا أمام أولادك، والأقرباء والمعارف.
سننتظر إلى أن يحدث شيء ما يمكن أن نعلن من خلاله هذا الزواج.

صمتت المرأة وعندها فقط أحس باطمئنان عليها وتراجعت به خطواته، في المساء أحضر شيخا مع شخصين إلى القبو، وصعد ليخبرها أن تأتي حتى لا يشك أحد بأنها صاحبة البناء، فارتدت ثيابا مموهة عن شخصيتها ونزلت، بعد نحو نصف ساعة خرج الجميع ورأى نفسه زوجا، قذف نفسه في حضنها وصار يقع عليها بالقبلات، كان جسده ينفتح لا ول مرة على الجنس، يكتشف الأنوثة لا ول مرة مع هذه المرأة التي تميزت أمام ناظريه بفصاحة أنثوية جسدها، حتى جسدها المراهق

اللون لبث محافظا على شبابيته دون أن يؤثر عليه الزمن، ولم يكن يخطر له البتة أنه ينام مع امرأة تكبره بنحو أربعة عقود، كانت في ذروة رشاقتها الجسدية والروحية تهبه سحرية الأنوثة بنضج ولياقة وهي تتمتم: لتكن مغامرة العمر الأخيرة، لنتمرد قليلا على كل هذه القيود التي أحاطونا بها.

لاتقل: ياسيدتي، قل زهرة يا حنيف حتى لا أشعر بفارق العمر بيننا، أو قل: زهّورة كما تدلعني صديقاتي، قل: زهورتي حتى أشعر بأنني عدت أربعين سنة للخلف.

لكنه لم يجرؤ على قول شيء من ذلك وهو يقول: ستبقين سيدتي ومثلي الأعلى، أنت الشجرة المباركة التي أستفيء بظلها. كان أمامه أن يكتشف جمالية النضج، وجمالية الحكمة، جمالية السخاء بلا حدود.

وبذات الوقت يقول لها بأن الزمن وفي حالات استثنائية يقف بأشخاص في مراحل معينة، وقد وقف بها في الخامسة والثلاثين، ومنذ ذاك العمر فهي تعيش خارج الزمن.

وكان يعيش معها هذه الحالة فحتى جسدها كان لا يزال يحافظ على رشاقته ورونقه، لم يكن يتخيل البتة أنها تتقدمه بكل تلك السنوات.

كانت تصغي إليه بصمت عميق إلى أن يصمت، ثم تقول بأنها كم تمنت فيما لو التقيا في ظروف ملائمة أكثر من هذه.

أحيانا تتصل به في العاشرة ليلا وتدعوه للدخول، يستحم، ويرتدي أفضل ما لديه من ثياب ويصعد كما لو أنه سيدخل ركنا خارج هذا العالم، تمسك بيديه مع مد الخطوة الأولى وتأخذه على الفور إلى غرفة النوم المزدانة بالستائر الحريرية الشرقية وبضوء خمري شديد الخفوت، وينبعث صوت / أم كلثوم / من المسجلة كما لو أنه ينبعث من ركن بعيد، الأغنية ذاتها التي تتكرر في مثل هذه الطقوس كما لو أنه لا يوجد غيرها وهو يدرك أن مكتبتها الموسيقية تحتوي على الأغنيات الكاملة لعمالقة الطرب إضافة إلى أنها تحفظ كل هذه الأغنيات.

يومها أدرك أن أغنية / ألف ليلة وليلة / غنُيت فقط لتُسمع في غرفة النوم أكثر من أي مكان آخر، رغم حبها الكبير لـ عبد الحليم، إلا أنها دوما وفي مثل هذا الوقت تضع هذه الأغنية التي اعتاد عليها حتى أنه كلما ينتهي الوجه الأول من الاسطوانة يمد يده ويقلبها إلى الوجه الآخر.

يأخذها في حضنه على ذاك السرير الملكي الواسع ذو الوسائد الحريرية، في تلك الحجرة المليئة بالدمى وألعاب الأطفال والسكاكر والشوكولاته والحلوى، الغارقة في الهدوء والسكينة والمعدة كل الإعداد لقضاء ساعات ذهبية وشديدة الخصوصية كهذه، أحيانا كانت تنهض وتحضر صندوقا صغيرا، تفتحه، وتطلب إليه أن يضع لها الحلية، فيمد يده إلى الأساور والأقراط وعقد اللؤلؤ، والأشكال المرصعة بالأحجار

الكريمة، يضع عقد الماس حول رقبتها، والخواتم في أصابعها، والأساور في معصميها.

كانت الساعات تمضي حتى يدركه الصباح دون أن ينام، وعندما يغفو للحظات ما يلبث أن يفتح عينيه فيراها يقظة أو غافية بعض الشيء، يضع قبلة على خدها، فتفتح عينيها وتحتضنه من جديد وهي تطلب إليه أن يحضنها بقوة، وعندما يهمس بكلمة ترجوه أن يؤجل كل شيء، ويكتفي بحضنها، يرتفع صوتها بدفقات حنونة وهي تتمتم: احضني.. احضني، بقوة، بقوة.. بقوة، يرتفع حتى يشعر أن الصوت يتسرب إلى الطابق العلوي، ويتركها دون أن ينبهها على ذلك لا نها طلبت إليه أن يؤجل كل شيء.

بعد قليل تتركه وتغور في البكاء، يشعر أنها قطفت عناقيد اللذة وأن هذه الدموع المباركة لا تقل شأنا عن تلك اللذة، يدعها ولا يبدي حركة حرصا على ألاّ يفسد عليها مشاعر معينة ترغب في أن تعيشها.

بعد نحو نصف ساعة تستدير إليه وتبتسم، ويتصاعد الابتسام إلى أن يتحول إلى ضحك، ثم إلى قهقهة وهي تملأ عينيه وخديه بقبلات حنونة، ثم تطلب إليه أن يفعل ما يشاء ويكون حرا في قطف عناقيد اللذة، وتعتذر على مابدر منها وهي تمنعه من الحديث، فيشعر بزلزال في كيانه، يقول: أنتِ تعتذرين مني ياسيدتي، وكيف ذلك، بل أنا دوما من عليه أن يعتذر على ما بدر منه دون قصد.

تقول: لا يا حنيف، أعتذر لك، وأكوي لك ثيابك أيضا، وأصنع لك الطعام حتى أشعر بأنني زوجتك، وتهمس له بمزيد من خفوت: أراك في ساعات حفيدي، وأراك بعدها ابني، ثم أراك زوجي، ثم أبي. تبتسم للحظات وتضيف: وأحيانا جدي، هل تصدق يا حنيف، أحيانا أراني طفلتك الصغيرة، وتداعب شعره: الحب الكبير يا حنيف هو ذاك الذي يكون بمقدوره أن يساوي بين شخصين في كل شيء، يساوي بين الناضج والمراهق، بين الثري والفقير، يساوي بين الأعراق والألوان والأديان، وإن فشل في ذلك فإنه يا حنيف لا يكون حبا كبيرا، يكون نزوة وسوف تذروه الرياح.

يرفع يدها إلى فمه ويضع قبلة عليها فتضمه وتقول: الرجل الشرقي لا يقبّل يد المرأة إلا إذا بلغ مرحلة متقدمة من الوعي يا حنيف.

يقول: وإن لم أبلغ مرحلة متقدمة من الوعي، لكني بلغت مرحلة متقدمة من الحب.

أجل الآن وبعد مرور كل سنوات الغياب يدرك بشكل أعمق مما كان عليه أن أمام الحب الكبير تزول فوارق الأعمار والمال والجاه واللغات والأديان، وإن لم تزل فإنه لا يكون حبا كبيرا، يكون نزوة.

الآن يدرك أن زهرة كانت الحب الكبير الذي لا مس شغاف قلبه ولم تكن نزوة لا ن امرأة بحجم زهرة إذا حُظي الرجل بها لا يمكن إلا أن يحبها الحب الكبير الذي يمتد ويورق إلى آخر لحظة من لحظات العمر سواء كانت حاضرة أم غائبة.

زهرة، زهرةُ أينعت في تربة قلب الطفولة لا تقبل الذبول مهما انقطعت عنها المياه ومهما تقدمت به السنوات، إنها غرسة الحب الخالدة، لقد أعطته كل شيء على الإطلاق دون أن تمكنّه الظروف من أن يرد لها ولو شيئا يسيرا مما أعطت، ولعل هذا ما يجعله دائم الشعور بالإثم نحوها.

أجل إنها المرأة التأسيسية الكبرى التي أسسته، وبنته لبنة لبنة، وقدمته للعالم، وهو مايزال يشعر بأنه تلميذها، ومايزال يستمد من تلك العلاقة قوة الشخصية، والارتقاء، والمروءة، والعطاء الذي لا حدود له.

ورغم مرور كل تلك السنوات فماتزال نفسه تتوق للمرأة التي تكبره، إنه يشم رائحتها الزكية من كل امرأة يلتقيها وكأنها توزعت على كل النساء اللواتي التقاهن من بعدها، المرأة التي لا يزيدها الزمن إلا حضورا في الذاكرة والقلب.

كانت أحيانا تتمتم له: أتعرف يا حنيف، عندما تذهب إلى القامشلي، أرغب فيما لوكنتَ مقطوعا من شجرة حتى تكون لي وحدي ولا يأخذك أحد مني لحظة واحدة.

وانتهت السنة الدراسية الأولى، كان عليه أن يعود لقضاء ثلاثة شهور في البيت، بيد أنه ذهب ولم يطق بعادها أكثر من ثلاثة أيام قائلا لا هله بأنه يحتاج إلى مكان يكون فيه بمفرده من أجل التحضير للسنة القادمة، ولا يوجد أفضل من البيت الذي استأجره في الحسكة، فوافق أهله على ذلك، بعد عودته أخذته بسيارتها إلى دمشق أمضيا فيها ثلاثة أيام كانت بمثابة شهر العسل كما قالت له، حينها زار العاصمة لا

ول مرة، اكتشف جماليات تلك المدينة العريقة، وولدت في نفسه رغبة السكن فيها، وأخبرها بهذه الرغبة، بيد أنها قالت بأن ذلك فيه من الصعوبة لا نها لا تستطيع أن تغيب عن أولادها، ولا يوجد مبرر تقدمه لهم من أجل أن تترك المدينة.

بعد عودتهما، بدأت تأخذه في النزهات والرحلات البعيدة عن المدينة وهي في أناقتها القصوى حتى لا يكون بوسع أحد من المعارف رؤيتهما، كانت تزداد تألقا وجاذبية وجمالا، وكان يزداد تفتحا واكتشافا يشعر بأنه في عطلة طويلة: أجل يا حنيف كانت المرأة الكبرى التي لا يمكن لك نسيانها، وإلا لِمَ تقف أمام ذكرها بكل هذا الخشوع وكأنها قديسة، لِمَ كلما تشعر بألم تهرع إلى صورها، تملأها بالقبلات وعبارات الشوق، والدموع.

عند فتح المدارس بدأ يلاحظ ذبولا على كل ذاك الشروق، وكانت تقول بأنها حزينة لا نها تحرمه من نعمة الأبوة، وأنها تحدد له مصيرا، وتغلق عليه أبواب المستقبل. ويقول بأنه يفضل الموت على أن يسبب لها ألما ولو للحظة واحدة، وهو الذي يشعر بإثم لا نه لا يستطيع أن يقدم لها شيئا، ويعجز كيف يعبر لها عن قوة مشاعره نحوها، ولكنها الكلمات فقط ولا شيء غير الكلمات، كان يرغب أن يغرقها بالهدايا والسفر، والعزائم، والذهب، والثياب.

وأمام هذا الذبول لم يكن قادرا على النوم حتى وهو في حضنها سواء في شقتها أو في القبو، كانت تستلقي على ظهرها وتنذرف الدموع من عينيها، وكان يمسح الدموع، ويهدهدها كطفلة صغيرة كي تنام، وكان يطلع الضوء على ذلك.

أحيانا كان يعاملها وكأنها طفلة، فكان يأتي بحقيبة مدرسية، يملأها بالأقلام والدفاتر، ويضع فيها / صندويشة / ثم يمشط شعرها ويقول: كوني حذرة في المدرسة يا عزيزتي. فتبتسم تلك البسمة المفقودة، وتهز رأسها بحزن، ثم تعود إلى البكاء.

عند انتهاء الفصل الأول من الدراسة لم يبق أمامها إلا أن تصارحه قائلة بأن حبها الكبير له وحرصها الشديد عليه يجعلانها أن تطلب منه الانطلاق نحو الحياة واكتشافها. فكان ذلك بمثابة الصاعقة على قلبه، ورغم ذلك لم يستجب وكرر بأن مستقبله معها وهو سعيد بذلك وإن كانت راغبة فهو لدى التخرج سوف يخبر أهله بالحقيقة ويعلن هذا الزواج.

وكم مرة يمكن أن يأتي الحب العظيم ليدخل حياة الرجل، إنها مرة واحدة، وهو لا يريد شيئا غيرها، بيد أن المرأة اختفت نهائيا عن المنطقة كلها تاركة سرا غامضا ليس لديه فحسب، بل لدى كل سكان المدينة، بعد شهرين من الاختفاء جاء أولادها وطلبوا منه إخلاء القبو، وعندها لم يبق أمامه غير أن يترك المدينة كلها ويلتحق بالجامعة لاكمال دراسته من جهة ولتنفيذ وصيتها من جهة أخرى حتى يكتشف الحياة التي كانت ترويها على أسماعه خلال سنة ونصف من الزواج. خلال السنوات

الثلاث الأولى من دراسته في الجامعة كان يتعمد العودة إلى البيت بين شهر وآخر فقط ليسأل عنها، كان ينزل في / الحسكة / يذهب ويسأل عنها في البيت فيقال بأنها ماتزال مختفية، وكان أحد أولادها يقيم في ذات الشقة، وهو ذاته الذي كان قد طلب منه أن يخلي القبو، يرد عليه بأنها ماتزال مختفية، ثم يدخله البيت ويقوم بواجب الضيافة لا نه كان على علم بمنزلة هذا الشاب لدى أمه الغائبة دون أن يخطر له في بال شيء مما وقع، فكان يسأله بعض الأسئلة عن أمه لا نه كان آخر من رآها، فيجيب بأنه لم يلحظ شيئا غريبا، وكان يراها بشكل شبه، يمضي ساعة في ذكرى ذاك البيت الحبيب، تلفت حفيدتها نظره بشبهها العجيب لا حب وأقرب امرأة إلى قلبه، فيناديها ويأخذها في حضنه، ثم يقدم لها هدية، ولم يكن يملك من أن يخفي دموعة، إنها ذات الرائحة، رائحة تلك المرأة المجيدة التي ماتزال تشكل لغزا إنسانيا عظيما في حياته.

يخرج من الشقة، يلقي نظرات إلى القبو، وتغص في حنجرته الكلمات، ويكمل إلى الكراج يقطع تذكرة إلى القامشلي. ثلاث سنوات فقد فيها الأمل، ولم يعد يتخيل أنه يعود إلى هذه البقاع التي بدت مظلمة أمامه، حتى القامشلي انقطع عنها ليكون بوسعه أن ينسى، يومها ولدت في نفسه رغبة البقاء الدائم في العاصمة.

* * *

ثمة طفل يظهر لا ول مرة ليقف جواره ويكون لحضوره شديد التأثير لتخفيف حالة الكآبة المستبدة به، وثمة امرأة تعين ذاك الطفل على هذه المهمة وينجحان في تقديم حالة من النشوة والاستقرار النفسي إليه.

أحس بحاجة شديدة لا سترخاء في غرفة النوم، ولم يلبث أن سار شطر الغرفة الغارقة في الهدوء.

استرخت كل مفاصله وتسربت إلى وحشة روحه نشوة عارمة مع هبوب اللحن، أشعل ضوءا خافتا واستلقى على ظهره في السرير، امتدت أنامله إلى المخدة وضمتها إلى حضنه، أحس للحظات بأنه أهدأ مخلوق في العالم ولم يسبق له أن تذوق حالة الهدوء الساكنة هذه بعد أن كان مضطربا منذ ساعة لا يدري أين يتجه، وبدأت حواسه تتفاعل مع الموسيقى والضوء الخافت وحالة الهدوء العامة التي استكانت في محرابها.

وفي لحظات أخرى تحولت المخدة إلى أنعم امرأة في العالم فبدأ يداعب شعرها الحريري، ويلصق خده بخدها الناعم.

عند ذاك انتهت المقطوعة الموسيقية، ولا يدري لماذا أحس بأنها لن تعود حاملة إليه ذات الهدوء وذات النشوة، فمد يده إلى الهاتف المحمول وبدأ يكتب لا ول مرة إلى ذات المرأة: شكرا لك يا سيدتي على كل شيء.

نظر في العبارة، وبدا مترددا من النقر على زر الإرسال. هل تكون هي المرأة التي لبثت طوال عمري أبحث عنها، هل هي المرأة التي تأتي وتقول: ولكنني أنا مَنْ تبحث عنها، أنا التي أبحث عنك لتجدني، أنا هي المرأة القابعة في مخيلتك منذ ثلاثين سنة كالحلم الذي يأبى أن يتحول إلى واقع.

بعد نحو نصف ساعة نهض صنع فنجانا من النسكافة وعاد يجلس على الكنبة، تشجع على إرسال الرسالة وفي لحظات ضغط على زر الإرسال. بعد ذلك أحس بحجم الإرهاق الذي بذله طوال اليوم، وأدرك للتو بأنه يقظ من السادسة صباحا وهاقد بلغت الساعة الواحدة ليلا، استلقى جسده الذي بدا عليه الإرهاق للتو في الفراش، صعد إلى رأسه خدر خفيف لذيذ وغار في نوم عميق.

في التاسعة صباحا فتح عينيه وتمطى في السرير، أشعل المذياع كعادته ليسمع الأخبار الأولى وبعض الأغاني الصباحية واستعراض مواضيع الصحف المحلية.

وفي أثناء ذلك نهض بشيء من الحيوية والنشاط، مارس بعض حركات رياضية سريعة، أخذ حماما سريعا ثم تناول فنجانا من القهوة وقرر أن يمضي فترة الظهيرة من يوم العطلة هذا في طرقات المدينة وحدائقها سيرا على قدميه، بخروجه تناهى منبه المحمول ينبهه بوصول رسالة، تذكر للتو كل تلك الأجواء التي عاشها ليلة البارحة، وتذكر العبارة التي أرسلها لصاحبة الرسائل، توقف على عتبة الباب وفتح الرسالة: لتعلم ياسيدي بأنني كنتُ سماء مظلمة فأتت كلماتك حرفا حرفا لتملأ هذه السماء

بنجوم مضيئة. وأي شرف عظيم تمنحه لي لتقول لي: ياسيدتي، بل أنت سيدي وستبقى سيدي يا سيدي. هز رأسه قليلا وأكمل مشواره نحو طرقات المدينة وحدائقها وهو يستمتع بغواية الأصوات الآدمية.

المدينة التي تفتح له حضنها وتهدهده، تتحول إلى جسد كبير وهو يكتشف معالم هذا الجسد ويتذوق جماليته بعذوبة فائقة، وللتو أدرك سبب كل هذه اللهفة التي تدفع السياح من كل بقاع العالم لزيارة هذه المدينة العريقة والاستمتاع بمعالم جسدها البهي.

عند الظهيرة تناول وجبة الغداء بشهية في إحدى تقاطيع الجسد وعاد إلى البيت منتشيا كأنه عاد من رحلة قام بها حول العالم.

مضت عشرة أيام دون أن يتلقى أي رسالة من صاحبة الرسائل وهي المرة الأولى التي تتأخر فيها مثل هذه المدة لترسل شيئا، راوده شعور بأنه كان اعتاد على رسائلها حتى وإن لم يكن يرد عليها، كانت الرسائل تصل بين يومين وثلاثة أيام طوال سنة مضت. نظر في الوردتين المثبتتين في شاشة الهاتف وقال: حنّت عيناي لقراءة رسالة جديدة منك.

تناهت نبراتها: ليستا أكثر من حنين روحي وأصابعي لكتابة هذه الرسالة.

أدرك من هذه الإجابة أنها قامت بما كان عليها القيام به وعليه أن يقوم بما عليه إن كان راغبا حقا في قراءة رسالة جديدة، لقد لبثت ترسل سنة كاملة دون أن تتلقى

جوابا إلا مرة واحدة، وما الذي سيحدث فيما لو بادر هو ولو مرة واحدة، وما الذي سيحدث فيما لو أرسل رسالتين أو حتى عشر رسائل وهي تستمتع بالقراءة فقط دون أن ترد كما كان يفعل، أليس هذا هو الحب الذي لا حدود له، أليس هذا هو الحب الذي اعتاد العطاء دون أن ينتظر أي رد، الحب الذي يعبر عن قوته وعن عظمته بتلقائية الأطفال.

* * *

في المساء اتصل به مناف وقال: اليوم مهجة مصرة أن نتعشى عندك إن لم تكن مرتبطا بموعد، ياصديقي اشتقنا إلى تلك الأجواء التي تمثل لنا أجمل أيام الخطوبة. رحب بحرارة بهما وببطلتهما الصغيرة أغاريد التي كعادتها تأتي معهما لتنام بعد نصف ساعة من بدء السهرة، وعندها تعلق مهجة: الحق عليك يادكتور لو تزوجت وأنجبت لا غاريد صديقة لتسلتا معا وملأتا علينا البيت ضجيجا، المسكينة تشعر بغربة في الجلوس مع الكبار فتفضل النوم. قام بترتيب البيت بعض الشيء واتصل بالمطعم يوصي على عشاء، ثم أخذ دشا وتهيأ لا ستقبال ضيوفه. في التاسعة مساء وصل الضيوف فاستقبلهم بحفاوة وهو يحمل أغاريد ويطبع قبلة على خدها قائلا:

أهلا ببطلتنا الصغيرة.. مرددا عبارات الترحاب. قال مناف: مهما كان استقبالك لنا حميميا فهذا لا يعفيك ياصديقي من أن أغلبك قبل كل شيء بلعبة شطرنج.

قال ببسمة طفيفة: حاضر ياصديقي، أنا جاهز لا ن تغلبني، أنا وحيد وأنت معك أغلى شخصين في العالم، وكيف لا تكون أقوى مني وتغلبني.

ولأن مناف يعلم مكان طاولة الشطرنج فقد اتجه إليها قبل أن يجلس ووضعها على مائدة صغيرة قائلا لمهجة: اعملي لنا فنجانَي قهوة ياعزيزتي.

مضت نحو ساعة في لعب الشطرنج فرن جرس الباب، عند ذاك نهض حنيف وهو يقول: لا بد أن الطعام وصل. فتح الباب فدخل شخص يحمل بيده بعض الأكياس، دعاه حنيف للدخول وإعداد الطعام على المائدة وعاد إلى صديقه الجالس يكمل اللعب إلى أن فرغ الشخص من إعداد المائدة وخرج، فتركا علبة الشطرنج، وجلسوا جميعا لتناول العشاء بينما كانت أغاريد مستغرقة في النوم على الكنبة كعهدهم بها.

قال مناف: طعام طيب ياصديقي لكنه لو كان من صنع سيدة البيت لكان أطيب.

وعلّقت مهجة: يبدو أن صديقك لن يتركك إلى أن تقتدي به.

فقال: أظن الإقتداء به ليس خطأ كما كنت أظن.

قال مناف دهِشا: أكمل.. أكمل قبل أن تسحب كلامك.

قال بهدوء وبشيء من الجدية: أجل ياصديقي يبدو بأنني سأقتدي بك، وأخذ يتحدث عن صاحبة الرسائل وعن مشاعره المفاجئة نحوها.

فقال مناف وبسمة سعادة قد ارتسمت على شفتيه: الزواج وشراكة الحياة بين شخصين علاقة جوهرية أكثر منها علاقة ظاهرية، تتزاوج ذرات المرأة بذرات الرجل وتتزاوج ذرات الرجل بذرات المرأة فيقبلان أن يكونا زوجين في الظاهر أيضا ويعلنا هذا الزواج فقط ليعلم الآخرون وحتى يمكن لجسديهما أن يعبرا عن قوة ذاك التزاوج الروحي، ولكنهما قبل ذلك يكونا قد تزوجا حتى لو لم ير أحدهما الآخر قط.

وعلى قدر ما يكون ذاك التزاوج الروحي قويا فإنه يبث القوة ذاتها في تلاحم الجسدين، فالعينان تأكلان العينين نظرا، واليدان تأكلان اليدين مصافحة، والفم يأكل الفم قبلات، والجسد يأكل الجسد التحاما في حالة تبلغ ذروة في الشوق والدموع وانفجار عبارات الحب السحرية التي لا تحضر إلا في لحظات روحية متقدمة كهذه من عناق الذكورة والأنوثة واكتمال أحدهما بالآخر، وعلى قدر ما يكون هذا التزاوج واهنا فإنه يبعث البرودالروحي والجسدي فيهما فيكون الجسد باردا في احتضان الجسد حتى في حالة ميتة من أي ذرة إثارة وإن كان الجسد مستلقيا في حضن الجسد منذ دهر.

فترى زوجين ينامان كل ليلة على السرير الزوجي ولهما أطفال بيد أنهما غير متزوجين ولم يتذوقا لحظة من لحظات عسل الزواج.

في مسألة الزواج عليك أن تعتمد بشكل أولي على حواسك وقلبك وعقلك أكثر مما تعتمد على أي اعتبار آخر أو أي شخص مهما كان مقربا منك لا نه ليس من مقرب إليك أكثر منك. لا أراني كثير الثقة يا حنيف بالذي يقول أنه سوف يتزوج امرأة لا يحبها وأن هذا الحب سوف يأتي بعد الزواج، إنه تكهّن في غير محله بالغيب، وكيف يعقد أملا خطيرا كهذا على التكهن، هذه العلاقة تكون قد انبنت على أساس ظاهري فحسب دون أن يدرك أحدهما كينونة الآخر، دون أن يرى أحدهما الجانب الآخر في الآخر.

ابتسمت مهجة وهي تنبهه بأن الحديث أصبح مباشرا عن مدثر وميس، فقال حنيف: وما هي المشكلة إذا تعلمنا من أخطاء وعثرات بعضنا البعض، على الأقل نحن الأصدقاء. فأردف مناف: هؤلاء الأخوة يبدو بأنهم يواسون أنفسهم في بداية الأمر، ولكنهم فيما بعد يكتشفون بأن هذه المواساة تطول بهم حتى تستغرق أعمارهم بأكملها، ويكتشف كل جسد بأن الضجر كله يقطن الجسد الآخر حتى لينفر منه كل النفر.

أعرف شخصا من أقربائي يقول لي بأنه أحيانا يخرج من البيت صباحا قبل أن تستفيق زوجته ولا يعود إلا وهي نائمة آخر الليل فقط حتى لا يستمع صوتها أو يقع نظره عليها، ولكنه مضطر للعيش معها بسبب الأولاد، لقد حوّل هذا القريب حياته إلى جحيم وبيته إلى ماهو أضيق من زنزانة على روحه، أجل أحيانا يتحدث ويبكي

من حرقة الألم، ولكنه هو الذي كان قد اختار هذه الزوجة بمحض إرادته وكان يعلم بأنه لا يحبها على أمل أنه فيما بعد سوف يجد المرأة التي يحبها فيتزوجها، كان قد اختار من شريكة حياته ظاهرها فحسب، وهي اختارت منه ظاهره فحسب فوقع الظاهر في أسر الظاهر.

ولكن المشكلة أنه حتى في بحثه عن المرأة الأخرى كذلك لا يبحث عن امرأة يحبها، بل عن امرأة، أي امرأة يمكن لها أن تخفف عنه ضجر المرأة الأولى علّه يلمس فيها شيئا من عزاء، لا أدري إن كان قد وجد هذه المرأة التي تقبل أن تلعب هذا الدور في حياته أم لم يجدها لا نني لم أره منذ نحو خمسة شهور، وكان حينها – إن لم تخني الذاكرة – يلمح لي بأنه وجد تلك / المخلوقة / التي قبلت أن تقاسم تلك الزوجة رَجلها وتقسّمه معها إلى النصف، ولكن ينقصه بعض المال حتى تتم هذه القسمة.

كثيرون يترددون إلى أماكن عامة وحفلات ومناسبات فقط علّهم يصطادوا جسدا، وغالبا ما تكون الأوصاف مرسومة في مخيلتهم ولا يكون الأمر مختلفا بينهم وبين أي مدير مكتب يريد تعيين سكرتيرة يحدد في إعلانه عن أوصافها. إنهم يبحثون في هذه المناسبات عن هذه الأوصاف المرسومة دون غيرها وما أن تقع أنظارهم عليها حتى تراهم لا يترددون من عرض الزواج منذ اللقاء الأول، وترى هذا الشخص يقول لفتاته بأن ماكان مرسوما في مخيلته قد وجده كاملا في هذه اللحظة فما الذي

يستوجب التأخير الذي قد يفسد كل هذا المشروع بسبب تدخل دخيل أو حسد حسود أو لؤم لئيم.

قالت مهجة وهي تهز رأسها وتنهض لتحضر من المطبخ إبريقا من الشاي: هذا يكون بالنسبة لجانب كبير من النساء أيضا يا مناف، فالفتاة ترسم كامل ظاهر عريسها في مخيلتها قبل أن ترسم لمحة واحدة من جوهره وتذهب إلى هذه المناسبات مستعرضة مفاتنها الظاهرية بانتظار أن يلمحها ذاك الصياد ويقذف لها صنارته.

بدخول مهجة المطبخ استرسل مناف حديثه: الشكل لوحده دون جوهر يستند إليه ويبعث في فضائه النجوم والشمس والقمر والأمطار والفصول يكون باهتا مهما حمل من جمال وفتنة، ولذلك فإن علاقتك مع الموسيقى غير المرئية هي أقوى من علاقتك باللوحة التشكيلية مهما بدت هذه اللوحة بالغة البهاء لا نها شكل صامت يعجز أن يتحاور معك ويستجيب لحواسك ويتفاعل مع مكنوناتك كما تفعل الموسيقى التي بمقدورها أن تجعلك ترقص وتضحك وتبكي وترقد. كل هذا وأنت تسمع فقط دون أن تراها رأي العين أو تلمسها لمس الجسد، بيد أن اللوحة التي تراها رأي العين وتلمسها مس الجسد تعجز أن تبدد قلقك وتهدهد روحك لتنام مهما نظرت إليها.

نهض حنيف وهو يتمتم: لقد شوقتنا للموسيقى يارجل، كيف مضى كل ذاك الحديث ونحن لم نستمع إليها، منذ يومين وصلني كاسيت جديد، ثم حمل الكاسيت وبدأ يقرأ عناوين المقطوعات: الراعي الوحيد – تكلم عن الحب بنعومة – مشاعر – امرأة في الحب – سأحبك دوما. ودسه في باب المسجل ليخفق قلب الصمت بأنغام بالغة العذوبة وكأن خيوط شفق بدأت تبدد عالما من ظلام. قال مناف: هذه المقطوعات تبقى خالدة يستمع إليها العالم كله، إنها تتخطى حدود اللغات والتركيبات الاجتماعية وحقب الزمن.

رحم الله ذاك الكاتب المجهول القائل: / الموسيقى حكمة عجزت النفس عن إظهارها في الألفاظ المركبة، فأظهرتها في الأصوات البسيطة، فلما أدركتها عشقتها، فاسمعوا من النفس حديثها. الصوت الحسن والنغم الصحيح يجري في الجسم ويسري في العروق، فيصفو له الدم، وتنقاد له النفس، ويرتاح له القلب، وتهتز له الجوارح، وتخف الحركات.

منافع الصوت الحسن والأنغام الشجية أنها يُتوصّل منها إلى نعيم الدنيا والآخرة، لا ن منها ما يبعث الشجاعة، ويحدث النشاط، ويؤنس الوحيد، ويريح التعبان، ويسلّي الكئيب، ويبسط الأخلاق /.

قال مناف: مهما قرأتُ من كتب حديثة يا حنيف فإن نفسي تبقى تواقة إلى تلك الكتب القديمة لا نني أجد فيها كل شيء. ذاك التراث غني وفيه دواء لكل داء

وتعيس ذاك الـذي لا يكـون دائـم التـزود منـه. عنـدما أشـعر باضـطراب وأن النـار اشتعلت في نفسي أتذكر قول المعري: / تخبو النار ولو هجم لهبها على النجوم / فأدرك أنه بعد لحظة سوف يخبو اضطرابي وينتابني الهدوء. برأيي يا حنيف كان التواضع هو الذي يقف خلف كل تلك الحكمة العميقة، هذا التواضع الذي نفتقده كثيرا الآن. كان الحسن البصري يقول: / إذا خرجت من منزلك فلقيت من هو أسن منك فقل: هذا خير مني، عبد الله قبلي. وإذا لقيت من هو دونك في السن فقل: هذا خير مني، عصيت الله قبله. وإذا لقيت من هو مثلك فقل: هذا خير مني، أعرف من نفسي ما لا أعرف عنه.

عندئذ خرجت مهجة من المطبخ حاملة إبريق الشاي فاستأنف زوجها حديثه قائلا: يبدو أن الأمر يأخذ مسارا جديا يامهجة، أخيرا ظهرت المرأة التي جعلته يفكر جديا بأن يقتدي بي.

قالت مهجة: سترى يا حنيف كم أن الحياة ستتغير، وكم ستغتني كتاباتك بعناصر حياتية كانت مفقودة فيها، وجود المرأة في البيت هو الدفء الحقيقي للرجل. عقب مناف وهو ينظر إليها: في البيت فقط يامهجة، فقالت مهجة وهي تبتسم: أنا آسفة، في الروح أيضا. ثم عقب حنيف مبتسما وهو يمد يده إلى كأس الشاي: كانت تقصد في بيت الروح. ثم قال وهو يضع الكأس بعد أن رشف رشفة ممتعة من

سخونة الشاي الذي حلّته مهجة بملعقة عسل: المرأة هي الدفء الذي تم انتزاعه من الرجل ليرى نفسه ناقصا وباردا وبذات الوقت باحثا عن استعادة هذا الدفء المفقود حتى يسترد توازنه الطبيعي روحيا وعضويا، ولذلك فهو يقول لها: لقد وجدتكِ.

وهذا يعني بأنها كانت مفقودة منه وهو الذي يبادر في ترتيبات استعادتها، ويحتفل بهذه المناسبة التاريخية يكون فيها شديد السخاء، ويدعو كل محبيه للاحتفال معه بعودة هذا الدفء إلى صقيع روحه، ومن جديد فإن الصحراء تخضر بوابل الأمطار وبشروق الشمس وتبدل الفصول وتتفاعل مع الحياة بكل فصولها وتقلبات أحوالها، وعندها ترى فئات الناس من كل حدب وصوب تهوي إلى تلك الصحراء التي كانت غير ذي زرع من قبل فتتنزه في ظلال أشجارها وتقطف ثمار أشجارها اليانعة، وتسبح في مياه أنهارها العذبة الجارية، وتأنس بحيوانات حدائقها الخضراء.

كل الأديان والمعتقدات البشرية تتفق بأن المرأة انتُزعت من جسد الرجل الأكثر دفئا لتكون أنيسته وتنقذه من عزلة أبدية كان سيعيشها بعد أن وجد نفسه في الحياة وحيدا في بقاع غريبة يفتح عينيه لا ول مرة عليها.

لاأخفي عليكما بأن هذه المرأة قد حركت فيّ مشاعر جديدة، وبدأتُ أميل إليها رغم أنني لم أرها، أو لعلي رأيتها دون أن أنتبه لذلك، لا ن استفساري الأولي يوحي

لي بأنها كانت إحدى طالباتي المتخرجات، وهي من مناطق الشمال لا ن المسافة البعيدة التي تذكرها تجعلني أظنها من تلك البقاع.

قال مناف: وقد تكون إحدى قريباتك.

قال: لم أكن أعرف اسمها إلا منذ يومين عندما أرسلت لي بواسطة / البولمان / هذا الكاسيت الذي نسمعه الآن، قرأتُ على المظروف بأنه مرسل من / روهات/.

عندئذ تأكد ظني أنها بالفعل من تلك البقاع البعيدة.

وهذا أيضا أكد لي بأنها غير بعيدة عني.

قالت مهجة: إن لم تخني الذاكرة يادكتور فإن أهلك يسكنون في القامشلي.

قال: لي أخوة وأخوات وأقرباء في المالكية أيضا وفي عامودا، والدرباسية، والحسكة.

قالت مهجة: تلك المنطقة غنية بحضورها الثقافي وأظنها أنجبت أسماء جيدة في الإبداع والفكر والفن.

قال: ياسيدتي هي غنية بكل شيء، غنية بالنفط، والزراعة، والثروة الحيوانية، وتعدد اللغات والقوميات، غنية بالوعي، وغنية بالتخلف، غنية بالمال، وغنية بالفقر، غنية بالثقافة، وغنية بالجهل. كنا أحيانا نسهر في مجلس نتناقش أكثر المواضيع الثقافية والسياسية والاقتصادية والفكرية والفنية والفلسفية والدينية حساسية وإثارة، ثم في

اليوم التالي نُدعى إلى مولد أحد أقربائنا بمناسبة طهور ابنه فنضطر أن نردد خلف شخص أمي يرتدي عمامة وجبة مايقوله من مدائح وعبارات لم أسمع بها من قبل.

بل أن غالبية المرددين يظنون بأن هذا الذي يقولونه هو من القرآن أو من الأحاديث النبوية، ولذلك فإن الطعام المغطى بشرشف مثل كسرات خبز وحبات برغل وسكاكر وتمر يأخذ صفة القداسة والبركة بالنسبة لفئة كبيرة من الناس.

كنا نخرج من ذاك المولد لنجتمع نحن بعض الأصدقاء فنشرب حتى الصباح.

كان أحدنا عندما يكتشف رواية جديدة يتحدث عنها طوال السهرة فنستعيرها واحدا واحدا لنكتشف فيها جمالية اللغة وجدة المواضيع والأفكار، ونستشهد بمقاطع تحفظها ذاكراتنا بعد أن نكون قد كتبناها في دفاترنا.

الآن لا أعرف ما لذي حصل هناك بالضبط لا نني قليل التردد، أظنني انقطعت عن زيارة تلك المنطقة منذ مايزيد عن عشر سنوات.

ثم صمت قليلا وكأنه لن يضيف كلمة أخرى، لكن لم يدم صمته كما توقعا فأردف يسترسل وكأنه ينشد نشيدا: هذه هي المشكلة الأساسية التي تعانيها منطقتنا تلك، فمعظم أبنائها الذين تنبثق لديهم بذور المواهب يهاجرون بسبب بُعدها عن العاصمة وبُعدها عن الأضواء وتنمية الموهبة والكفاءة، ولكن رغم كل المسافات التي تفصلهم عن رحم المكان ينهلون مواضيعهم من تلك البيئة الساخنة والمتوهجة والغنية.

توجد فيها شخصيات غرائبية غاية في الدهشة والإثارة.

هذه الشخصيات الغنية هي التي تقف خلف كل تلك الأسماء الروائية والقصصية والشعرية والفنية التي برزت إلى العالم منطلقة من تلك المنطقة الثرية المظلمة.

قال مناف: ما يسرني يادكتور أن الأكراد مازالوا يحافظون على لغتهم بكل هذه القوة رغم كل هذا التشتت.

لأن اللغة هي وطنهم الباقي الذي ليس بوسع أحد أن يسلبها منهم، ولذلك فإن الطفل الكردي يتعلم أول ما يتعلم الأبجدية الكردية أينما كان مسقط رأسه، والمرأة الكردية وإن تزوجت في عائلة غير كردية فإنها تصر أن تعلم أبناءها لغة أجدادها ولا تشعر بقرب من أبنائها إلا عندما تتحدث معهم بهذه اللغة، وتكون سعيدة وهي تقدمهم لا هلها على قدر ما يجيدون الحديث بلغتهم. الكردية لغة آرية عريقة تنقسم إلى أربع لهجات رئيسية منتشرة في ثلاثة أقاليم من كردستان، اللهجة الشمالية يتحدث بها أكراد تركيا وسوريا ودهوك في العراق، واللهجة الكرمانجية الجنوبية يتحدث بها بعض أكراد العراق وإيران، وهناك اللهجة الغربية التي تنتشر بين بعض القبائل الكردية المتفرقة.

واللهجة الجنوبية تنقسم إلى ثلاث شعب هي البابانية والسورانية، والهورمانية والكورانية، والثالثة تشمل لهجات اللّر والبختياري واللك. تضم اللغة الكردية آلاف الكلمات المتشابهة مع الكلمات الموجودة في اللغات الآرية ومن ضمنها عائلة

اللغات السلافية والأوربية وعائلة اللغات الإيرانية التي تتكون بالإضافة إلى اللغة الكردية من اللغات الفارسية والأفغانية والبلوجية والاسيتنية.

اللغة الكردية غارقة في القدم وقد تثنى لي أن أرى تشابها بينها وبين أقدم لغة مكتوبة عرفها الإنسان.

- تقصد السومرية ؟
- أجل يا مناف، في هذه اللغة يقال للشجرة: دار، وبا لكردية يقال لها: دار، ويقال للعمق: كور، وبالكردية يقال: كور، ويقال للشعير: شه جه، وبالكردية يقال: جه.

وعندما ترى احتفالات عيد نيروز ستدرك بأن الفلكلور الكردي هو من أغنى فلكلورات شعوب العالم التي ماتزال تحافظ على عراقتها وأصالتها حتى هذا اليوم.

الإنسان الكردي هو إنسان مسالم أينما كان، ثمة ملحمة شعبية في التراث الكردي هي: زمبيل فروش. تحتوي على نصائح أساسية للإنسان الكردي. يقول الرجل لزوجته: حلمت حلما جميلا رأيت فيه قصورا من الذهب ورأيتك في تلك القصور حورية تقفين خلف الستائر، عندها أردت أن أدخل القصور حتى أكون معك، عندها ظهرت لي حورية وقالت لي: عد من حيث أتيت، لا تدخل القصور وارحل سائحا في الدنيا، كن فقيرا ومتدينا، لا تهجر الصلاة والصوم، عش فقيرا في معطف قديم،

اسمع وساعد إخوانك الفقراء، إياك أن تكون أميرا رهن السلاسل والقيود، أنت تعلم أن الموت قادم لا مفر منه، فعلام تحتاج أموال الدنيا، أهجر القصور والحدائق، اعمل الخير والمعروف لتدخل الجنة.

إنها تدعو الإنسان الكردي ليتمسك ببساطته ويطوف الدنيا ويعيش سعيدا ويزرع المحبة ويساعد الناس قدر استطاعته.

تقول الحكمة الكردية: / الذهب رغم غلاته يحتاج للنخالة /

وهي توجه بأن الغني مهما بلغ من ثراء فإنه يحتاج إلى الفقير.

الكردي هو إنسان لا يؤمن بتحقيق أحلامه إلا عن طريق الحب، وقد استمد صبره من الجبال، إنه بتقديري أكثر الناس صبرا على الآلام، وأظن أن هذا هو العامل الأكثر أهمية في سبب بقائه حتى الآن دون وطن، بل سبب صبره على حتى منعه من أن يتحدث لغته، ويرقص رقصاته، ويغني أغنياته في بعض الأماكن التي يتواجد فيها. إنه الشعب الوحيد الذي يزيد تعداد سكانه عن ثلاثين مليونا ويمثل المرتبة الثالثة بعدد السكان بين شعوب المنطقة، وهو من أقدم الشعوب في الشرقين الأوسط والأدنى القاطنة جنوب غرب آسيا، ومساحة أراضي كردستان تزيد عن مساحة ثلثي دول العالم قاطبة، ومازال الأكراد يتشتتون في كل بقاع الأرض دون أن تكون لهم هوية، ودون أن تكون لهم لغة يعترف بها العالم.

بعد لحظات من صمت وهما ينظران إليه قال:
أريد أن أوضح لكما بأن كلمة / الجهاد / مقترنة في عقيدة الإنسان الكردي بجهاد الحب، فهو يمكن أن يجاهد بنفسه في سبيل من يحب في الوقت الذي لا يقبل فيه أن يؤذي أحدا مهما كان الهدف من ذلك. إنه كثير النسيان، وكثير التسامح من أجل أن يبقى منفتحا ومحبا ومتواصلا مع الآخرين بالتصاهر والعلاقات الاجتماعية والاقتصادية والإنسانية. وأظن أن هذا الحب هو الذي جعله يساهم بفعالية في بناء الثقافة والحضارة الإنسانية.

قالت مهجة: في كتابك النقدي الأخير ركّزت يادكتور على أن عظمة العمل الإبداعي تكمن في جانب هام فيه على ثراء الشخصيات وغنى المكان.

– لذلك فإن هؤلاء لا يستطيعون أن يبدعوا دون الارتكاز على المخيلة التي خزنت لهم كل تلك المشاهدات التي رأوها وعاشوها يوما بيوم ولحظة بلحظة.
هنا لم تعد الكتابة كتابة فحسب، بل تتحول إلى حياة، يعيش الكاتب حياة حقيقية يستردها في مخيلته ولذلك يكتب بقوة على قدر ما يتوق للعيش مجددا في تلك الأحداث سواء كان قريبا منها أو بعيدا عنها، إنه هنا يقوم بتخليدها ليراها ويعيشها معه الآخرون أيضا، لكن هذا لا يعني بأن هذه الإبداعات التي أتحفتنا كثيرا تعبر عن

تفاصيل الشخصيات والمكان والوقائع أكثر من كتابات أولئك الذين آثروا البقاء على الهجرة رغم ظروفهم القاسية، ولذلك فإننا ننظر إليهم على أنهم أبطال أكثر منا جميعا، ولا أخفي إن قلت بأن الغالبية فينا تنظر إليهم نظرات قريبة إلى القداسة. مؤلفات هؤلاء تعبر بصورة أقوى لا نها تتغلغل في المكان والشخصيات لحظة بلحظة وتنبثق من عمق المعاناة، في حين أن المهاجر ليس له رصيد غير الاعتماد الكلي على مخزون الذاكرة هذه الذاكرة التي تمتد بالنسبة لبعضهم إلى ثلاثين أو أربعين سنة مضت.

البلبل يغرد بشدو أجمل عندما يقف على شجرته التي ولد عليها أكثر مما يشدو عندما يكون في شجرة يحط عليها أول مرة، وحتى إن شدا فإن هذا الشدو لا يكون أكثر من محاولة استرجاع وحنين إلى كل تلك الذكريات والمشاهدات التي رآها عندما كان على غصن شجرته الأولى، في حين أن شدو البلبل الأول يبقى أكثر عذوبة وواقعية وانسجاما مع المحيط.
جميعنا سمعنا عن بُعد الأحداث التي وقعت في الثاني عشر من آذار، وتناول تلك الأحداث كتاب وسياسيون ومحللون ومفكرون من شتى أنحاء العالم، ولكن الكتابات والتحليلات التي بدت الأقرب إلى المصداقية كانت تلك التي تأتي من الذين عاشوا تلك التفاصيل لحظة بلحظة، ورعشة برعشة، هذه الرعشات التي كانت

تظهر حتى في حروف كلماتهم التي كتبوها ونبرات أصواتهم التي تحدثوا بها في وسائل الإعلام.

الآخرون كانوا يسمعون وينظّرون من بعيد بناء على ما تردهم من أنباء، بينما هؤلاء كانوا يعيشون الكتابة ويتنفسونها، ولذلك فإن هذه الكتابات والتحليلات التي انبثقت من قلب الأحداث تبقى هي الشاهدة الحية والأكثر مصداقية.

وكعادته قبل النهوض طاب مناف من صديقه استعارة رواية جديدة يختارها له، فمد حنيف يده إلى رواية وقال بأن اشتراها منذ أيام وفرغ منها للتو: رواية مذهلة يامناف، ياللخسارة أنني لم أقرأها من قبل، كم من الروايات علينا أن نقرأها يامناف قبل أن يدركنا العمر.

قال مناف وهو ينظر إلى زوجته: لا تعلم يا حنيف كم أنا سعيد لا نني استطعت أن أجعل مهجة لا تنام قبل أن تقرأ ساعة برفقتي، وحتى عندما أكون غائبا فإنها اعتادت على ذلك.

ابتسمت مهجة وقالت: الفضل يعود لحنيف أيضا لا نني قرأت معظم مكتبته، مكتبتنا تبدو طفلة صغيرة أمام مكتبتك يادكتور رغم أننا لا نترك معرضا إلا ونأخذ منه مجموعة كتب، وحتى في زياراتنا إلى بعض الدول لا نعود إلا ونحمل معنا حقيبة خاصة بكتب انتقيناها بعناية.

قال حنيف: كلما نقرأ نشعر أننا بحاجة إلى أن نقرأ المزيد، وكلما لا نقرأ لا نشعر بأي حاجة للقراءة.
ثم قال وهو ينظر في الرواية التي بين يديه: هذه الرواية تعرف كيف توجهك في مراحل قراءتها، تمنح روحك بعضا من صفحاتها، ثم تأمرك بتأجيل ما تبقى إلى الغد دون أن تقبل أي مساومة منك لتلقب ولو جملة أخرى. فتضطر إلى الإذعان وتعود في الغد لتمنحك بضع صفحات مشرقة أخرى، ثم تقول: كفى من فضلك.
تقول لك هذا وأنت في ذروة العلاقة الروحية والحدسية مع نسيجها، وعندما تريد إرغامها على القبول في الاستمرار تقول لك بشفافية امرأة بالغة الرقة: لكن أرجوك فأنت لست مهيأ الآن، وأنا لستُ مهيأة، إنني أتألم، سأعيدك إلي وسأهبك نفسي وجسدي عندما تتهيأ حواسك لا ستقبال ما تبقى مني، عندما أتهيأ لمنحك كل ما لدي. فتناديك في الغد إلى عرسها معك، ثم ما تلبث مرة أخرى أن تكرهك على التوقف وأنت في قمة انسجامك، ولا تملك مرة أخرى غير أن ترضخ لتوسلاتها ولدموع عذريتها الأولى.

وإن نزغك نزغ وسعيت للتواصل رغما عنها تأتيك بلغة أخرى فتشعرك بأنك تغتصبها وهذه عملية غيرأخلاقية لا تليق بشخص يريد أن يبني علاقة مع امرأة عفيفة

بحجمها، إذ أنها تتألم وتنزف بين يديك وأنت لا يهمك سوى أن تستخلص اللذة من هذا الأم، فتنهض دون أن ترضى لنفسك الاستمرار في سادية كهذه.

وللتو انتبه حنيف إلى مهجة وهي تنصت وتنظر إليه نظرات شديدة التركيز دَهِهشة وكأنها تسمع قصة مشوقة، فأردف وهو ما يزال ينظر في مناف والرواية بيده: ولكن تقول لنفسك: ما هو السر الذي يقف خلف كل هذا التأجيل ؟! فترى بأنك خلال هذا الانقطاع تنفتح على بناء علاقات حميمية مع الأشياء من حولك، تبني علاقات صداقة مع الورود، مع النجوم، مع الماء، مع كل الأشخاص الذين تلتقيهم. إنك هنا تشعر بثراء وامتلاء كل شيء من حولك كنت تراه ولا تلتفت إليه.

ثم تقول لك: إن معرفتك لقوة سطوع الأشياء محدودة لا ن عينك تنظر إلى ظاهرها نظر العين، وهي تحتاج إلى أن ينظر قلبك أيضا إلى جوهرها نظر القلب لتكتمل المعرفة.

ثم عاد وألقى نظرة أخرى إلى مهجة التي ماتزال مستغرقة في الإنصات بذات الدهشة ناسية نفسها واقفة معهما فقال موجها كلامه إليها: مع هذه الرواية ندرك كم أننا خسرنا كثيرا مع إنجازات هذا العصر، خسرنا كثيرا من المشاعر وطاقات الصبر وإمكانية الاستمتاع بالوقت والعمل وممارسة تفاصيل الحياة.

لقد بات الإنسان في هذا الوقت يا سيدتي يحصل على كل شيء في لحظات معدودة، كل شيء بات يعزز ثقافة العجالة في نفسه، فهو إن أراد إرسال رسالة،

يكون له ذلك في لحظات ويتلقى الإجابة عليها في تلك اللحظات، وإن أراد السفر إلى أبعد بقعة في الأرض حدث ذلك في وقت قصير، ثم أن أي حدث يقع في أي بقعة من العالم يراها حالا بالصوت والصورة.

لاشك أن كل هذا التراكم إذا تركه الإنسان على سجيته ولم يتحكم به، يولّد حالة العجالة الدائمة في ذاته ويعززها، فيكون قلقا مضطربا، يشعر بأنه يركض طوال الوقت حتى وهو نائم في سريره، يركض دون أن يصل إلى حد يقول فيه: هاقد وصلت، لا نه كلما يركض تأخذ الطريق أمامه مسافات أطول.

وهذا يأتي على مختلف جوانب حياته وسلوكياته مع نفسه ومع الآخرين.

فنرى شخصا مايزال يحط على سطح الجامعة ويستعد للطيران للتو نحو فضاء الحياة يريد أن يكون نجما مشهورا، وزوجا لا جمل امرأة، وأبا لستة أولاد، ومالكا لبيت وسيارة ورصيد في البنك، ويتمتع بكل منجزات العصر في سنة واحدة، فإن أجرى اتصالا مع شخص يبعد عنه آلاف الأميال وصدف أن الاتصال الأول لم يتم بنجاح، لا يتردد من أن يحطم الجهاز المحمول ويفقد أعصابه لا ن ذلك تأخر كثيرا، وإن أراد أن يدخل إلى شبكة الأنترنيت واستغرق دخوله خمس دقائق، يفقد أعصابه من العجالة وكأنه ينتظر منذ سنة.

كنا ننتظر شهرا حتى نكتب رسالة ونضعها في يد الحبيبة وننتظر شهرا حتى يأتينا الجواب، وكنا نمضي في السفر يومين متتاليين في حافلات معدومة من كل وسائل التهوية في عز الصيف حتى نصل العاصمة، وكان يشاركنا الركوب: الماعز، والغنم، وديك الحبش، وتمتلئ الحافلة بغيوم من دخان السجائر، والسعال الحاد، والشتائم، والقهقهات المرتفعة.

كنا ننتظر يومين لتصلنا صحف العاصمة، وأحيانا كنا ننتظر سبع ساعات متواصلة حتى نتمكن من الاتصال بمدينة مجاورة لا يستغرق الوصول إليها سبع ساعات لا ننا كنا نسجل على المكالمة بواسطة البريد، وكان المرء ينتظر خمس عشرة سنة حتى يأتي دوره للحصول على خط هاتفي فيقيم عرسا بتلك المناسبة السعيدة التي يحسده عليها الآخرون.

هذه الرواية ياسيدتي تنبه الإنسان ليتحكم بثورة التقنيات العالية التي حلت عليه فجأة ويكون هو قائدها ومهيمنا عليها، ودوما يمنح لنفسه هامشا من الصبر حتى يبقى متوازنا ومستمتعا بهذه المنجزات ومتذوقا لقوة عظمتها دون أن تفقده توازنه الطبيعي الذي نما عليه لحظة بلحظة. وهو عندذاك يشعر بأنه هو الذي يملك، وهو الذي يقود، وهو الذي يقرر.

وعندها لا يجد وبالا في أمره من أن يكتب رسالة بخط اليد ويرسلها عبر البريد العادي رغم توافر كل وسائل السرعة الأخرى ولو مرة واحدة في الشهر، يمكن أن يسافر عبر البر أو البحر إلى إحدى الدول رغم وجود وسائط نقل أسرع، يمكن أن يمشي على قدميه ساعتين وسط المدينة وهو يشتري حاجاته رغم وجود سيارة لديه، يمكن أن يبرك على رصيف فيأكل صندويشة فلافل، ولا ينسى أن ينظر بقلبه إلى العصفور وهو يطير، إلى الزهرة وهي تتفتح، إليه وهو يستيقظ للتو من نوم عميق.

طفولة الإنسان مثل طفولة الأشياء هي التي تضفي عليه براءة ذمته وأصالته، وهو بهذه الطفولة يمتلك العالم كله من خلال امتلاك وردة واحدة من كل هذا العالم.

كان يتحدث وكأن أحدا يلقنه هذا الحديث، ولكنه لم ينس للحظة بأنه مايزال تحت تأثير حديث ذاك الطفل، وأن ما يقوله هو بوحي من حديث هذا الطفل أكثر مما هو في الرواية، وأن مناف لن يجد كل هذه التفاصيل وهو يقرأ، كأنه بهذا الحديث يضيف فصلا جديدا إلى الرواية، الفصل الذي لن يقرأه مناف. ولكن يقول لنفسه: ألا يتحول النقد في بعض مراحله بين يديك يا حنيف إلى إضافة فصول جديدة للروايات التي كتبت عنها حتى أن الطبعات الجديدة لتلك الروايات لم تكن قادرة أن تتقدم إلى القراء إلا من خلال تذييل نقدك وشرحك بها.

* * *

اعتاد في بعض أمسيات أن يذهب إلى بقالية جارته / روند / المرأة العانس التي بلغت الخمسين من عمرها، يجلس داخل المحل وهو يستمتع بالناس يدخلون ويبتاعون الأشياء: أطفال، نساء، شبان، شيوخ، مراهقات، عمال، مهندسون، محامون، أطباء، كلهم يدلفون ويشترون حاجات مختلفة وهو يتأمل هذا المنظر كأنه في مسرح، فتمضي ساعتان دون أن يدري بهما وروند بين حين وحين تقدم له كأسا من الشاي، أو زجاجة مياه معدنية، أو فنجانا من القهوة.

ثم قبل أن تغلق في وقت متأخر تشكره لا نه سلاّ ها هذه الليلة، وتعيد له ما تقوله في كل مرة كيف أن العمل في هذا المحل جعلها تخسر كل عمرها: المرأة التي لا رجل لها يا حنيف لا أحد لها حتى لو ملكت مال قارون، صحيح أنني حققت حلمي بشراء هذا المحل، وصرت غنية، لكن أشعر بأن ماخسرته لن تعوضه أموال العالم، تحول هذا المحل إلى عبء ثقيل على كاهلي لا أعرف كيف أتخلص منه، علي أن أنهض كل يوم في السادسة صباحا حتى أبيع القشدة واللبن والحليب الذي يصل صباحا، أبقى في هذا المحل حتى الثانية ظهرا، ثم أذهب إلى البيت الذي لا أحد

فيه غيري، أتناول وجبة غداء سريعة مثل علبة طون، أو مرتديلا، وقبل أن أنتهي يطرق علي الناس الباب حتى أبيعهم بعض الحاجات، هؤلاء يجدون محلات أخرى مفتوحة، ولكنهم عادة يكونون من الزبائن الذين يشترون بالدين إلى نهاية الشهر، وأعود إلى المحل وأبقى إلى الحادية عشر ليلا، ثم أذهب إلى البيت منهكة، أتعشى وأغفو حتى السادسة صباحا ليبدأ يوم مكرر آخر لا جديد فيه، لم يبق أمامي من هدف في هذه الحياة سوى جمع المال، ويااله من هدف سخيف، أعترف لك يا حنيف بأنه في بعض الأوقات جردني حتى من إنسانيتي، فكنت أغش بعض الناس، وأكذب عليهم من أجل المزيد من الربح، هل تظن بأنني أعيش، أنا أعيش ولكن ليس لي أي علاقة بالحياة.

ذات يوم حدثته بعمق وهي تغالب الدموع في عينيها: أترى ذاك الباب الأبيض يا حنيف ؟

قال وهوينظر إلى الباب: نعم أراه

لعلك لا تعرف، إنه بيت جارنا نوح، صاحب منشرة أخشاب.

أظنني أرى شخصا يدخل هذا البيت، وسبق له أن ألقى علي السلام، وإن لم تخني الذاكرة رأيته يشتري أغراضا من هذا المحل، وأيضا هناك امرأة يبدو أنها حديثة العهد بالزواج، أراها أحيانا جوار الباب وألقي عليها السلام.

قصتي مع هذا الباب عمرها خمس سنوات من الدموع، منذ تزوج نوح وحتى هذا اليوم، بعد عودتهما من شهر العسل يأتي صبي كل صباح بدراجة هوائية، يوقفها على الرصيف المحاذي لهذا الباب ويمد يديه إلى ذاك الزر المضيء ليرن الجرس، ويحمل من مقود الدراجة ومن مقعدها الخلفي أكياسا أرسلها معه معلمه، تفتح جارتنا الباب وتتناول الأكياس ثم ما تلبث أن تغلق الباب ثانية دون أن تنظر إلى أي ركن من الشارع.

كل صباح يجلدني هذا المنظر وتسيل معه دموع من عيني حتى لو كان المحل غائصا بالزبائن. وعندئذ أتخيل كيف أنها تناولت الأكياس وعادت إلى دفء بيتها، ثم عند الظهيرة يعود زوجها من محله فيتناول الطعام ويمضي قيلولته في حضنها، وأراه يعود إلى المنشرة يبقى حتى التاسعة مساء، فيأتي إلى محلي يأخذ ما يشاء ويمضي في حضن زوجته حتى الصباح ليجلدني حضور ذاك الصبي من جديد.

في تلك اللحظات يا حنيف أشعر بأنني لست امرأة كما أنني لست رجلا، وأنا كائنة مهملة لا حاجة للحياة بها ولا حاجة لها بالحياة، وتركبني رغبة جامحة في أن أجمع كل أموالي في المحل وأغلق الباب وأشعل النار بي وبكل شيء أملكه لا نني أكون عندذاك على ثقة أكثر من أي وقت مضى بأن حراستي لهذا المحل ولهذه الأموال هي التي جعلتني لا ألتفت لقطار العمر الذي مضى دون أن أشعر به، ذاك القطار الذي لن يكون بإمكانه أن يعود مرة أخرى.

* * *

في اليوم التالي شعر برغبة جامحة للتحدث مع تلك المرأة المجهولة التي تظهر وتختفي، لسماع ولو نبرة واحدة من صوتها.

مرات ومرات دوّن الرقم على الشاشة وتردد في الضغط على زر الإرسال، وتكررت المحاولات إلى أن مضى شهر عليه دون أن ينجح في الإرسال، ومن طرفها فقد انقطع كل شيء عنها، ولكنه في نهاية الأمر قرر أن يضع حدا لهذا الانتظار، ففي الساعة العاشرة ليلا أجرى الاتصال المنتظر، وعندئذ وقبل أن يفه بحرف واحد

تناهى صوتها العذب إلى سمعه: تبددت الأحزان عن قلبي عندما أشرقت شمس ربيعك عليه.

كل ذرة ضوء كانت تنادي في صحراء انتظاري: لكنها ستشرق، كل ذرة ظلام كانت تبعث الصدى في ليل حنيني: لكنها ستشرق وتبدد كل هذا الظلام.

- يبدو بأن الرجل مهما بدا قويا فإن المرأة تنجح في أن تحيل هذه القوة إلى ضعف وتجره إليها.
- إنه ليس ضعفا يادكتور، بل أظنها قوة العاطفة التي يتمتع بها الرجل، المرأة بدون الرجل لا تشكل أي قوة لا ن الرجل هو مصدر القوة والقوامة، لكنها تريد دوما أن تتحول تلك القوة إلى عاطفة فيحتضن بها ضعفها.

صحيح أنك متخصص في النقد الأدبي ولكن كتبك تحمل الكثير من الإبداع في التعبير عن آرائك الشخصية التي كان لها الأثر الكبير على شخصيتي، وتصحيح الكثير من أفكاري، وسوف أكون سعيدة لو أخبرتني عن مشروعك الجديد الذي تعمل فيه.

– أريد أن أدرس نظرة الرجل وتقييمه للمرأة من خلال الرواية، سوف أبحث في نظرة الرجل وكيفية تقديمه للمرأة في الرواية التي كتبها، إنه هنا لا يقدم المرأة كما هي امرأة على قدر مايقدمها امرأة كما هو عرفها، أركز على هذه النقاط في عملي

الجديد، وأظن بأن مثل هذا العمل سيكون بمثابة نافذة معرفية جديدة لي، ولدي رغبة في أن أفتح مثل هذه النافذة.

رأت بأنها فرصة ثمينة لها حتى تتعرف عليه من خلال الحديث ويتعرف على أفكارها عن قرب، ونسيت تماما بأنها المكالمة الأولى التي يجريها، كما أنه نسي أيضا بأنه يتحدث معها بشكل جدي لا ول مرة، واستمر الحديث كما لو أن أحدهما يعرف الآخر عن قرب من سنوات طويلة فقالت بحميمية:

إن سمحت لي أن أتحدث قليلا عن المرأة لكوني امرأة وليس لكوني رجلا، وأظنني أستطيع أن أتحدث عن بنات جنسي بشكل أكثر دقة، وهذا ربما يقدم لك شيئا في المقارنة بين مفهوم المرأة للمرأة، ومفهوم الرجل للمرأة.

رأى بأنها فرصة ثمينة حتى يتعرف على بعض أفكارها، ويدخل عالم امرأة جديدة: يسعدني حديثك خاصة وأنا على وشك البدء في هذا العمل، إن أي معلومة سوف تكون إضافة على الأقل لوضعها على المسودة الأولى.

فقالت دون أي تمهيد للموضوع التي ترغب الحديث فيه: الرجل هو الكل الثابت يادكتور، في حين أن المرأة هي الجزء المفصول التائه عن كله الأصل، ولذلك فإن حاجتها للعودة إلى الالتحام بكلها الذي اجتُزأت منه لهي أعلى من حاجة الرجل لا سترداد ذاك الجزء، لا ن الرجل الأصل بدون امرأة لا يشعر بتيه، ويمكن له أن

يكمل حياته دون امرأة، ولكن المرأة حتى لو أمضت حياتها في عنوسة فإن تلك الحياة لا تخلو من وجود رجل، وهي وإن تمضي في هذه العنوسة فلايكون ذلك إلا لا نها لا تجد رجلا يقبل أن ينقذها أو لا قل يرحمها من تلك العنوسة، في حين أن الرجل الذي يبقى عازبا فإنه هو الذي يرفض الزواج وفي أي لحظة يرغب فإنه يجد امرأة ليتزوج بها بعد ثلاثة أيام حتى لو كان في السبعين من عمره، ولذلك ترى امرأة تقبل بأن تكون الزوجة الرابعة مع ثلاث أخريات يشاركنها ذات المسكن، أي أنها تفضل ربع رجل وربع بيت فيه رائحة رجل على أن تعيش لمفردها في بيت بدون تلك الرائحة التي تُشعرها بالأمان والدفء والطمأنينة.

صمتت برهة ثم قالت: لا أعرف إن كنتُ أهذي أم أقول شيئا ترغب في سماعه.

فقال على عجل: بل العكس، فأنا أضع تصورات أولية لعملي الجديد وأنت تتحدثين، كنتُ بحاجة إلى مثل هذا الحديث من امرأة تتحدث عن المرأة بكل هذا الوضوح قبل أن أباشر بشكل جدي في عملي، لدي تصور عن هذا الموضوع، بيد أنه من وجهة نظري كرجل، ولا أظنها كافية دون الإصغاء لوجهة نظرك كامرأة.

فقالت وقد استرجعت جديتها في الحديث: كنتُ أعني بأن المرأة لم تُخلق مثله من تراب ككائن مستقل كما تعلم، ولو كان الأمر كذلك لما شعرتْ المرأة بكل تلك الحاجة القصوى إليه. ولما شعرت بكل هذا الضعف نحوه، وبالتالي لما شعرت بكل

تلك اللذة المضاعفة عن لذة الرجل وهي في حضنه، لكانت أصلا يلتقي بأصل مستقل عنه.

لأبسّط لك الفكرة يا أستاذي، فالغزالة البالغة الحسن لا تشعر نحوك أنت الرجل بأي حاجة أو ضعف أو لذة، كما أنك لا تشعر وأنت تنظر إليها بأي عاطفة، وما ذلك إلا لا نها لم تكن ذات يوم جزءا منك رغم أنها أنثى وأنك ذكر. تأتي المرأة لتقول لك: أنا منك. ولا يقول لها الرجل كذلك بل يقول: أنتِ مني.

فمهما بلغت لذة العودة نسبة عالية بالنسبة للرجل فإنها لا تشكل إلا جزءا يسيرا من قوة لذة المرأة، ومهما تاق رجل إلى امرأة فإن توقه لا يشكل إلا جزءا يسيرا من توقها إليه، لذلك ترى أن بعض الرجال يستغل كل هذا الصدق الذي تتمتع به المرأة فيؤذيها به، فمن اليسير على الرجل أن يضحك على المرأة كما نقول في بعض أحاديثنا بيد أنه من العسير على أعقل امرأة أن تضحك على الرجل ولو كان بربع عقل، وحتى لو حدث ذلك فإن الرجل يكون عالما بالواقع ولا يتفاجأ به، في حين أن المرأة هي التي دوما تتلقى الصدمات المرعبة من الرجال وتُفجع بهم لا نها دوما تعطي كل شيء لرجل أحبته بيد أن الرجل لا يعطي كل شيء لا مرأة مهما أحبها إلا في ظروف شديدة الاستثنائية يكون فيها الرجل بالغ الحب لزوجته إلى درجة اقتران حياته كلها بوجود هذا الحب وهذه المرأة.

الفكرة الجديدة التي ستعمل بها في كتابك النقدي الجديد عن المرأة في الرواية التي كتبها الرجل فكرة بالغة الأهمية.

الكثير من الروايات التي قرأناها تتناول مسائل دقيقة وهامة في هذه الثنائية البديعة، وأحيانا ندرك أن الكاتب ماكان يقصد الفكرة التي وصلتنا من خلال القراءة لا ن كل قارئ يقرأ وفق المستوى الثقافي والمعرفي الذي هو فيه، وهذا هو حال كل كاتب بحسب علمي.

– سيكون هنا أمامي أن أفصل كذلك بين الرواية التي كتبتها المرأة والرواية التي كتبها الرجل، الرواية النسوية هي الرواية التي تكتبها المرأة وتقدم فيها المرأة من منطلق أنها امرأة، هذا التقديم الذي يكسب خصوصية كونه يأتي بقلم المرأة التي هي أبلغ وأدق تعبيرا عن نفسها من الرجل.

لاأعرف ياعزيزتي لماذا يصر بعض الأخوة على عدم وجود فوارق الإبداع وخصوصياته وتمايزه في الأدب الذي تكتبه المرأة سواء في بلادنا أم في مختلف أنحاء العالم، هذا الذي أرى أنه بذات الوقت يُسقط عن المرأة خصوصيتها كأنثى مختلفة عن خصوصية الرجل سواء من الناحية السيكولوجية أم من الناحية الجسدية. فالمرأة ليست رجلا كما أن الرجل ليس امرأة. ضحكت روهات بشيء من طلاقة وقالت: بدليل أنك تقول: رجل – امرأة.

أضاف وقد خفتت نبرة قهقهتها: وهذا الخلاف هو الذي يضفي خصوصية على كل واحد منهما ويدفع كل واحد منهما للحنين إلى الآخر، أن يرى كل واحد بأنه ليس الآخر لا ن كل واحد يفتقد في ذاته ما لدى الآخر، ثم يرى بأنه لا يكتمل إلا بوجود الآخر الذي يتمتع بخصال ومزايا لا يتمتع بها هو.

قالت روهات: من هنا يا دكتور فإنه من الأمر الطبيعي أن يكون أدب المرأة حاملا لخصوصيتها في أي منطقة من العالم ومعبرا عن وجهة نظر وقلق ومشاعر المرأة بصفة عامة، وهو على الأغلب يكون أكثر ثراء بتفجير العواطف ومسألة الإخلاص والعفاف في الحب ذلك أن المرأة ياسيدي عندما تحب شخصا وتنظر إلى الارتباط به فهي تكون على يقين بأن هذا الرجل هو مستقبلها لا نها لا تستطيع أن تتزوج غيره وهي على عصمته.

– بينما عند الرجل فإن الأمر مختلف بعض الشيء والفضاء مفتوح أمامه حتى وهو متزوج بأكثر من امرأة وهذا ما نلمحه في الرواية التي تكتبها المرأة والرواية التي يكتبها الرجل، حيث ترين مشاعر القلق دائمة لدى المرأة حتى وزوجها في السبعين من عمره، وربما تبقى هذه المشاعر لديها حتى اليوم الأخير من حياتها، في الرواية التي يكتبها الرجل فإنه بمجرد الزواج من امرأة حتى لو كان يكبرها بثلاثين سنة فيشعر بحالة من الاستقرار الزوجي معها حتى لو فصلت بينهما قارتان.

إنها ثنائية مكملة لبعضها، وهذا ما يجعل التمايز ثراء لكل واحد بالنسبة للآخر.

وبالتالي يجعل ماهو مفقود لدى أحدهما موجودا في الآخر.

- **إنك تبذل جهودا كبيرة في عملك يادكتور.**
- **الكتابة هي حياة جديدة أعيشها، كل صفحة أكتبها هي صفحة حياة جديدة تنفتح أمامي. الكاتب إن لم يكتب لكان أبأس المخلوقات على وجه الأرض، فقط بالكتابة يخفف عن روحه المعاناة وتكون الحياة جديرة بأن يتحمل من أجلها كل أشكال المعاناة المرعبة التي تواجه حياته لحظة بلحظة حتى وهو على سرير النوم، أو يكون في طائرة.**

لا أخفيك ياروهات عندما أكتب أشعر بأنني في يوم عيد، أكتب في طقوس وأجواء إحتفائية وكأنني وسط مدينة آهلة بالناس، تتحول الكلمات أمامي إلى أشخاص، وتتحول السطور إلى شوارع، والفصول إلى أحياء والأجزاء إلى مدن كبرى، وهنا أعايد الكلمات كلمة كلمة وتعايدني حرفا حرفا، نتصافح ونتبادل تهاني العيد وأضيفها وتضيفني السكاكر الشوكولاته والبسكوت وقهوة العيد. تبادلني الكلمات كل هذه الطقوس الاحتفائية في تلك الأجواء العيدية الأكثر سطوعا في حياتي، وتكون مشرقة ومرتدية أبهى حلّتها مظهرة جمالية الإبداع الإيقاعي في ذاتها وهي تمضي في شوارعي شارعا شارعا وفي مساكني مسكنا مسكنا، وأبادلها هذه الزيارات في تلك الأوقات الاستثنائية المجيدة.

الكتابة هي أرقى الأنشطة الروحية.

- كنا نتحدث عن الأدب النسوي الذي سوف يكون محور كتابك النقدي الذي تشتغل به يادكتور ولا أخفيك كذلك سعادتي بهذا العمل.
- لدي تصور بأنني سوف أتحدث بعض الشيء في مقدمة هذا العمل عن الخيال الذي يحتاج إلى بعض الشرح لدى الكثيرين الذين ألتقيهم أو أقرأ بعض كتاباتهم.
- هل سأكون محظوظة وأسمع منك ولو جزءا من هذه المقدمة.
- الخيال في الرواية هو روح التأليف، والتأليف كما أفهمه هو مقدرة الكاتب على أن يؤلف بين عشرة أشخاص من الواقع في شخصية واحدة يقدمها روائيا، لذلك فكلمة / تأليف / هي أقرب إلى الروائي أو الحكّاء من غيره لا ن من ضمن مهمته أن يكون بارعا في مقدرة التأليف بين التشتت الذي يلتقطه من الواقع ويوظفه ضمن نسيج فني ولغوي وتقني وكأن هذه الشخصية هي بالفعل شخصية واحدة وليست أجزاء من شخصيات، هذا هو الخيال الذي أرى في مقدمة عملي هذا أن أتحدث عنه بشيء من التوسع.

الروائي البارع يتمتع إضافة إلى هذه المقدرة العجيبة على التأليف
بقوة الإدراك التي تمكنه من أن يجعل من أشخاصه ومن أحداثه
أشخاصا وأحداثا كونية، ويخرجها من الإطار المحلي الضيق، وهو يتمتع بموهبة أصيلة في الحكي، وبقوة ملاحظة الأشياء، عندما يمضي في طريق ما ينظر إلى كل

شيء حوله، ولا شيء البتة لا يلفت نظره، إنه دائم البحث لملاحظة الأشياء التي لا يلاحظها الآخرون، ولا يكتفي بهذا، بل يضيف إلى كل هذه العوامل روح الإبداع، وهو لا يعجبه أن يلعب مثل هذا الدور فقط دون أن يكون مبدعا، وكذلك مفكرا، وشاعرا.

يُظن أحيانا أن كتابة رواية متميزة مقترنة بخصوبة خيال كاتبها الذي عليه أن يكون خياليا بامتياز حتى ينجح في إبداع شخوصه. حتى أن الفن ذاته يكون مقترنا بقوة الخيال، فأن يُقال: هذا مؤلف، يعني أنه فنان، وأن يُقال: أنه فنان، يعني أنه يبني عمله بلبنات من خيال.

في الماضي كنا نرى كلمة / تأليف / ياروهات على أغلفة الأعمال الروائية والقصصية، ولكن في وقتنا تكاد تختفي تلك الكلمة، ويكتفي المؤلف أن يضع اسمه دون أن تسبقه كلمة تأليف، بل أن البعض ينحرج إذا وضع هذه الكلمة جوار اسمه. وفي حقيقة الأمر فإن هذه الكلمة هي الأكثر تعبيرا عن مهمة الروائي والقصصي.

لقد اتضحت لي هذه الحقيقة فيما بعد، وتحديدا بعد أن قرأت أول رواية كتبتها منذ سنوات طويلة، وهي رواية تركتها في درج مكتبي دون أن أجرؤ على طباعتها خاصة بعد أن عملت في مجال النقد، فتبين لي أنني قمت بعملية تأليف بين مجموعة من أصدقائي المقربين وأخرجتهم في شخص واحد هو بطل الرواية، كنت

كلما قرأت ذاك البطل رأيت ملامح وسمات وخصوصيات وحتى عبارات أصدقائي هؤلاء، حتى أنني شعرت ببعض الحرج من أن أحد أصدقائي سوف يرى جزءا منه في تلك الشخصية، كنت أرى بوضوح الأحداث التي رووها لي، علاقاتهم الأكثر سرية، سلوكياتهم، وجهات نظرهم في أمور بالغة الحساسية والإحراج، ومع كل قراءة كان يتأكد لي أن هذا / الزعيم / إنما هو كائن مؤلـَف من مزايا مجموعة أشخاص في الحياة، وهو ليس من كوكب آخر، بل لا يستطيع الكاتب أن يأتي بشيء من كوكب آخر غير الكوكب الذي يعيش فيه مهما رأى الآخرون بأنه يستعين بالخيال وفق مفاهيم متعددة.

ثم كنت أنظر في شخصية / زعيمة / الرواية فأراها تحمل مزايا وخصوصيات نساء عرفتهن: الأخت، ابنة الخالة، الحبيبة، العشيقة، الصديقة.

امرأة / مؤلـَّفة / من كل تلك النسوة اللواتي عرفتهن. عندذاك تأكدت لي حقيقة واحدة أن الرواي ينجح في مهمته على قدر نجاحه في أن يؤلـِّف بين عدة أشخاص من الواقع في شخصية روائية سواء كانت خيّرة أو شريرة.

كما أنه يمكن أن تأتي شخصية ثرية من الواقع فتتوزع خصالها ومزاياها على عامة شخوص الرواية. وتبين لي في مرحلة لا حقة بعد مرور عشرين سنة أن هذا الأمر أعانني كثيرا اجتناب الوقوع في سِيَرية الرواية التي وقعت ضحيتها أعمال روائية كان

يمكن أن تكون فذة سواء في بلادنا أو بلاد أخرى من العالم. فيحس القارئ أنه يقرأ سيرة ذاتية، أو يقرأ مذكرات أكثر مما يقرأ رواية.
إنها رواية الشخصية المنغلقة الواحدة التي تسعى للتعريف بهذه الشخصية فحسب، وهذا يناقض روح الرواية التي من أولى وظائفها الانطلاقة المفتوحة، والسباحة في مياه خطرة، واللعب بالنار، وهذا ما لا حظته في فترة مبكرة من خلال أعمال بعض الكتاب التي كادت تفتقر إلى التأليف وتنفرد بامتياز في سرد سيرة ذاتية وعلاقاتها بالآخرين، ولست أدري لماذا حينذاك ينتابني شعور بأنني أقرأ رواية عرجاء.
في حين يكون الأمر مختلفا لدى بعض آخر، إذ أن أعمال هؤلاء تؤلّف الشخوص أكثر مما تسردها، أو تروي سيرها الذاتية.

أريد أن أقول لك بأن الشخصيات التي لم تكن محببة لدي، وكنت أنفر منها في الواقع، وعندما اكتشفت ذات الشخصيات في بعض الروايات وكتبت عنها، استطاع النقد أن يعرفني بتلك الشخصيات على شواطئ أخرى فبدأت أعيد النظر في تعاملي مع هؤلاء الناس، وأتودد إليهم، استطاع عملي في النقد أن يكشف أمامي ما لم أكن أكتشفه في هذه الشخصيات التي لها خصوصيتها وفلسفتها عندما كنت ألتقيها في إحدى شوارع الواقع.

بعد ذلك سوف أبدأ الكتاب بحديث عن شخصية المرأة، وأستند في ذلك على بعض التجارب التي مرت في حياتي.

كثيرا ما أقرأ الأدب النسوي ياروهات، وعندما أقع على مجلة تحتوي على مجموعة إبداعات فإنني أباشر بالأدب النسوي وألمح تلك الخصوصية المتميزة في هذا الأدب، وعلى الأغلب فإنني عندما أقرأ قصة لكاتبة ينتابني شعور بأنني أقف في حافلة ما أمام امرأة تسرد حكاية لصديقتها وأنا أختلس السمع منهما، في حين عندما أقرأ قصة لكاتب ينتابني شعور بأنني أقف خلفه خلسة وهو جالس على مائدة كتابة يكتب شيئا سريا بينه وبين نفسه بسرية تامة.

إذن عندما تكتب المرأة يكون الآخر موجودا بقوة وهي تكتب، بينما الرجل يلغي هذا الآخر أثناء عملية الكتابة كما أظن في الروايات التي قرأتها سواء في بلادنا أو في العالم، عندما ما أقرأ رواية لكاتب حتى لو كانت تتناول حياة امرأة لا أجد حضور المرأة في تلك الرواية قدرما أجد رأي الرجل في المرأة، بينما عند قراءة رواية لكاتبة تتحدث عن امرأة عندذاك أقرأ المرأة في رواية المرأة.

قالت روهات: في اعتقادي يادكتور...

قاطعها قائلا: لا أعرف لماذا يخرج اللقب من فمك جافا، كما لو أني أريد أن أنزعه عن نفسي، رغم أنه لا يفعل ذلك عندما أسمعه في كل الأماكن التي أتردد إليها.

قالت: ولكنك أستاذي قبل أي علاقة أخرى، وأظن مهما تطورت روح العلاقة بيننا في المستقبل لن يكون بوسعي أن أنسى بأنني تلميذتك بالدرجة الأولى، ولكن لا نني لستُ قادرة ألا ألبي لك طلبا تريده مني فإنني سأفعل ذلك قليلا حتى يكون الأمر في الوسط ما بينك وبيني.

كنت أريد أن أقول لك أنه على قدر قوة هذه الخصوصية وهذا التمايز الإبداعي بين الأدبين يكمن الثراء في روح الإبداع، وتكون المرأة مبدعة أصيلة ومتميزة إلى جانب الرجل في ثنائية إبداعية مكملة لبعضها.

– المرأة ياعزيزتي هي التي تنجح في أن تقدم نفسها كامرأة، هذا التقديم الذي ليس بوسع أحد أن يقدمه غيرها، وهل تظنين بأن علاقتنا مهما بلغت من العمق سوف تمكنني من أن أقدمك للآخرين بصورة أدق وأعمق منك.

قالت: الصحافة دوما تلعب دورا في انتشار روايات بعينها دون غيرها، على الأخص الصحافة اليومية التي تحتوي على صفحات ثقافية، هل تتابعها يا حنيف.

قال: هذا صحيح، وهي تؤدي مثل هذا الدور، أتابعها بشكل يومي لا نها أصبحت جزءا من الحياة اليومية التي لا غنى عنها رغم تعدد مصادر المعلومات الأكثر سرعة والأيسر.

الصحيفة اليومية الناجحة هي تلك التي تتحول بالنسبة لمختلف شرائح الناس إلى جزء هام من النشاط اليومي، وهي التي تنجح في أن توسع من فضاءات قرائها وتستقطب كل يوم المزيد من المقبلين عليها الذين يقتنونها لا ول مرة.

إنها على الأغلب تكون بمثابة إعلانات جيدة عن الكتب، بيد أنها إعلانات مجانية رغم استحواذها على مساحات كبيرة من الصفحات، وهي إعلانات تجارية ليس بالنسبة للكاتب بل بالنسبة للناشر الذي يأتيه كل هذا بالمجان.

علاقتي بالصحيفة اليومية هي علاقة وطيدة، لا نني من خلالها أتعرف على الإصدارات الجديدة وعلى بعض أخبار العالم الثقافية.

ما يميز الصحيفة أنها كل يوم تتحول إلى حمامة متجددة تحلق في كل البيوت والخيم والحافلات والمحلات العامة والخاصة، ولا يفتح كل هؤلاء أبوابهم لها إلا إذا حملت لهم كل يوم معارف جديدة لم تحمله في اليوم السابق.

وعلى هذا فإن هذه الحمامة تبني علاقتها المتينة مع أولئك الذين ينتظرون دخولها إليهم كل يوم، وإذا صدف وتأخرت يسألون عنها، وإن غابت لتستريح في عشها يوما أو يومين فإنهم يفتقدونها ويشعرون بنقص ما.

وهنا لا يكون أمامهم إلا أن يذكروا أمجاد هذه الصحيفة ودورها المميز في حياتهم، فهاهو صاحب المقهى الذي يقول بأنه لا يقرأ شيئا سوى هذه الصحيفة فقط منذ أربعين سنة، وهو يتمتع بثقافة واسعة في مختلف مجالات الحياة بفضل قراءته لهذه

الجريدة، وقد أتاحت له أيضا أن يقرأ بعض الكتب ويجعل في بيته مكتبة صغيرة عندما كانت تعرض بعض الكتب القيمة وتجعله يتجه إلى المكتبة ليشتري الكتاب.

وعندما يتحدث معكِ تشعرين بأنه يتمتع بثقافة عالية وهو بالفعل لم يقرأ شيئا غير هذه الصحيفة، ولذلك لا تستغربين عندما يقول لا جيره: / اجلب لي جريدة... وإن لم تجدها لا تجلب غيرها /. وعندما تسأليه عن سبب حرصه على هذه الصحيفة دون غيرها يقول لكِ: / إنها عشرة عمر /.

وعندما أذهب إلى المكتبة لشراء جريدتي اليومية المفضلة وقد تأخرت، أرى السبّاك، والحلواني، والفاكهاني، وأرى الممرضة والكوافيرة، والطبيب، والمعلم والمحامي، والموظف، والمختار، والكاتب يترددون إلى المكتبة وينظرون إلى ساعاتهم بانتظار وصول جريدتهم المفضلة هذه ولا يذهبون إلى بيوتهم رغم الاتصالات التي تستعجلهم للذهاب إلى الغداء.

أجل إنها الحمامة الطليقة الثرية التي تأتي كل يوم بالياسمين والريحان والأنغام والكلمات العذبة.

جرائد كثيرة تصدر عن هيئات وتنظيمات وأشخاص وهي جرائد تعتمد على منسوبيها ومريديها بالدرجة الأولى، وثمة جرائد مختصة مثل الجرائد الإعلانية، والفنية، والسياسية، والأدبية، وهي كذلك تعتمد على الفئة التي تخاطبها والتي لها علاقة مباشرة مع هذا الاتجاه أو ذاك، وفي جميع الأحوال فإن مثل هذه الصحف لا يكون

بوسعها أن تخترق كل الأماكن العامة والخاصة كالصحيفة اليومية الشاملة، أو لا قل الصحيفة / العملاقة / التي أحيانا يقترن اسمها باسم بلدها والتي تتواجد في كل مكان.

- لكن ما الذي يجعل من الصحيفة اليومية العادية تتمتع بهذه الخصوصية الكبرى وتكون صحيفة / عملاقة / تخترق كل الأماكن دون غيرها.
- خلال عقدين ونصف وأنا أقرأ صحيفتي اليومية المفضلة وأتردد إلى المكتبة التي أجلس فيها بعض الوقت عندما تتأخر / الجرائد / فأرى أفواج الناس تنهال على صحيفة أكثر من غيرها، وهذه الصحيفة على الأغلب تتمتع بميزة الشمولية، فهي تقدم أكبر قدر من الأخبار المحلية من مختلف المحافظات، ويتمتع مراسلوها وكتابها بالمصداقية والجرأة التي تجعلهم أحيانا يتعرضون لمساءلات، وهنا يكون مراسل الجريدة في المحافظة هو سفيرها الذي بمقدوره أن يزيد من شعبية صحيفته، كما بمقدوره أن يخفض من شعبيتها.

ثم تأتي هذه الصحيفة الشاملة لتقدم أخبارا تهم الفئات الدنيا من الناس وخاصة تلك التي تحدث تحت قبة مجلس الشعب، وكذلك تقدم صفحات رياضية واقتصادية وثقافية وتحليلات سياسية محلية ومترجمة وقضايا فكرية، إلى جانب استقطاب فئات الشباب وتخصيص زوايا وصفحات لمواهبهم، وتخصيص شيء

للمـرأة، والمطـبخ، والأزيـاء، والتسـالي، والأبـراج، وشـكاوى النـاس، والحـوادث، واليانصيب، فقد يحدث أن يدخل شخص مكتبة فلايطلب جريدة بعينها، بل يقول: أريد جريدة فيها كلمات متقاطعة وأبراج، أو يدخل شخص فيقول: أريد جريدة فيها صفحة شكاوى أو رياضة أو ثقافة.

وإذا وجد هذا الشخص ضالته في جريدة فإنه يبقى يداوم عليها فتكسب الجريدة قارئا جديدا،

قالت: ظاهرة الملاحق الأسبوعية المتنوعة التي تتبناها بعض هذه الصحف في الآونة الأخيرة تسهم بفعالية عالية في انتشار الصحيفة وشهرتها، وكذلك الكتب التي تهديها الجريدة كل شهر لقرائها.

ابتسم وقال: وأيضا هذا يجعل بعض باعة الصندويش والدهانون والباعة المتجولون ينهالون في تلك المواعيد للحصول على أكبر قدر من أوراق.

لكن رغم كل ذلك فإنها ظاهرة إيجابية تجعل الكتاب يخترق كل البيوت لا ن هناك بعض البيوت ويوجد فيها كتاب واحد وكأنه شيء من الممنوعات.

لاتنس حنيف أهمية حضور الشخص المناسب على رأس مثل هكذا عمل.

رغم محدودية صلاحياته فشخصية رئيس التحرير تلعب دورا بارزا وأوليا في سعة انتشار جريدته، وقد يصدف أن تُصاب جريدة / بنكسة / جراء وجود رئيس تحرير

متواضع في علاقاته وثقافته وموهبته الصحفية وجرأته فتخسر الجريدة أعدادا كبيرة من قرائها اليوميين وتتحول من جريدة ساخنة إلى جريدة بها برود مثلها مثل أي جريدة عادية وجودها كمثل عدم وجودها، وهنا ترى أفواج قراء هذه الجريدة تتجه إلى غيرها.

شخصية رئيس التحرير يمكن لها أن تجعل من أي صحيفة عادية صحيفة أولى في البلاد عندما يتمتع بانفتاح علاقاته المتنوعة وبكفاءة عالية في هذه المهنة فيعتبر صدور أي عدد بمثابة صدور كتاب له، إنه يتابع عمله صفحة بصفحة وزاوية بزاوية ويقف على رأس عمله تاركا الآفاق مفتوحة لا ي تطوير أو تحديث أو إضافة ويشعر بمسؤولية تاريخية خلال هذه الفترة التي يشغل فيها هذه المهمة الإعلامية الكبرى، إنها تتحول إلى تاريخ شخصي ومجد شخصي له وهكذا فنحن نتذكر أمجاد صحيفة بعينها ونقول: إن الأعداد التي كانت في عهد فلان من هذه الصحيفة تصلح أن تُقرأ في أي وقت، وكم كانت هذه الصحيفة مشرقة وواسعة الانتشار في عهد فلان.

الصحيفة المميزة هي تلك التي تنجح في أن تلخص لك أخبار البلاد والعالم المختلفة فتجعلك تقلب صفحاتها الثرية بنشوة وتحيل العالم كله إلى مدينة صغيرة تجعلك تمشي في شوارعها شارعا شارعا وزقاقا زقاقا مع كل صفحة وعمود.

قالت: بالنسبة لي فإنني أعتمد على نظام الاستعارة في المكتبات لا ن فيها من الكتب ما لا يمكنني أن أجده في أي مكان آخر.

ثم ابتسمت وقالت: هل تعرف بأنني قرأت غالبية كتب مكتبة الجامعة.

قال: وأي نوعية من الكتب كنت تفضلينها.

قالت: الرواية بشكل رئيسي، ثم المجموعات القصصية، ثم دواوين الشعر، ثم الكتب الفكرية، ولا أخفيك بأنني لم أكن أقرأ كتب النقد إلا بعد أن تعرفت بك، فقرأت كتبك، ثم قرأت بعض الكتب النقدية الأخرى التي رأيتها بالفعل تضيء لي الكثير من ظلمة النصوص التي كنت أقرأها.

قال: المكتبة الغنية بالمؤلفات الثمينة هي عقد من اللؤلؤ في جيد أي مدينة تكون في أحضانها، والمكتبة هي البيت الدافئ والخالد لا ي مدينة من مدن العالم، وأظن ياعزيزتي أن أي مدينة تخلو من وجود مكتبة فيها تكون مدينة باردة يرتجف سكانها من برد اللامعرفة. فإذن المكتبة تحتوي على الزاد المعرفي كما أنها تحتوي على الذاكرة الثقافية للمدينة وللدولة وللعالم. عندما أكون في الشارع وأشعر بفراغ العالم فإنني أتجه إلى أقرب مكتبة أراها، أتأمل كل تلك الثروة الأدبية الهائلة لبعض الوقت وأعود إلى البيت ممتلئا بالحياة والإشراق، وفي بعض الأمسيات عندما أشعر بفراغ الحياة وبالضجر فإن مكتبة البيت العامرة بالكتب ترفع من معنوياتي وتبث إلي إشراقا روحيا غريبا، أقف أمامها بعض الوقت، أتأمل الكتب كتابا كتابا، أتصفح بعضها، ثم أقدم لها التحية وأتجه إلى سريري.

على مدى التاريخ ياروهات المكتبات العامرة والثرية بالمؤلفات والمخطوطات هي دليل على غنى وثراء المدينة التي تحتويها، وهي دليل على حيوية السكان الذين بنوا مكتبة مدينتهم فتبقى المكتبة شاهدة ومؤرخة لا يقاع الزمن والناس معا.

إذا كان الناس بمختلف شرائحهم يدينون للمكتبات التي نهلوا منها الثقافات والعلوم والآداب، فإن الكتاب أيضا يدينون للمكتبات التي تحفظ لهم مؤلفاتهم عبر الأجيال.

أنا معك يادكتور، فمعلوم أن المكتبات التجارية التي تبيع المؤلفات يأتي يوم تنفذ فيه هذه المؤلفات، بيد أن المكتبة العامة تحفظ هذه المؤلفات وتعيرها بشكل مجاني للناس بهدف نشر الثقافة والمعرفة.

بالنسبة لي فإنني مدين لهذه المكتبات بجانب جيد من ثقافتي، لا ن وجود الكتاب غير ميسر في كثير من الأحيان، إضافة على غلاء الأسعار التي لا تيسر كل العناوين التي أرغب بقراءتها، بيد أنها تكون في متناول يد الناس في أي زمان ومكان إذا دخلوا المكتبات وتصفحوا عناوين القوائم كما تقولين.

ولعل هذه ما يحدث عندما تأتي رسائل التخرج على بعض مؤلفاتنا من جامعات عالمية، ونفاجأ بهذه الأخبار لا ن هذه الجامعة قد اقتنت هذا المؤلف لمكتبتها، وخلال عملي أدركتُ أن جامعات العالم تكاد تلاحق إصدارات الكتب من مختلف أنحاء العالم، فدور النشر تعتمد بشكل جيد على ترسيخ هذه العلاقة بينها وبين

مكتبات الجامعات، وأحيانا تسعى بعض الجامعات إلى كتاب بعينه وتجهل عنوان الكاتب حتى تراسله، فتعتمد في ذلك على المكتبات التي تتعامل معها من ذاك البلد الذي ينتمي إليه الكاتب.

كنت دوما أقول في بعض المقابلات بضرورة ترسيخ العلاقة بين المكتبات العامة وبين دور النشر من جهة وترسيخها بين مكتبات الجامعات العربية وبين دور النشر من جهة أخرى فقد نجد مؤلفات إبداعية متوفرة في غالبية مكتبات جامعات العالم بيد أنها غير متوفرة في مكتبات جامعات الوطن، وماذلك إلا لا ن الكاتب ليس بوسعه أن يقدم إهداءات إلى كل جامعات الدنيا لا ن ذلك فوق طاقته المادية والمعنوية.

نتحدث عن دور المكتبات بصفة عامة وأهميتها في مختلف مراحل حياتنا، سواء في المدرسة أو في الجامعة أو في العمل أو لمتعة القراءة في البيت، فالكثير من المؤلفات لا يستطيع المرء أن يصل إليها بيسر إلا عبر نظام الاستعارة من مكتبة مدينته، ولذلك فإن المكتبة التي لا تتجدد بتجدد المؤلفات تبقى مكتبة واهنة.

دور المكتبة يكمن في تجددها وحيويتها وشبابيتها واستيعابها لمختلف إبداعات العصر. كما أن هذه المكتبات في الدول التي زرتها تستقطب الزوار والسياح الذين يزورون البلاد.

قالت: فيما أظن ياسيدي أن جوهر الموضوع يكمن في النظرة العامة لمسألة القراءة في مجتمعاتنا التي لا تعتبرها من أساسيات الحياة، وتكون هواية يتم ممارستها في وقت فراغ، وعندما لا يكون هناك فراغ فلا لزوم لها.

القراءة التي لا تكون صلاة فإنها لا تقدم لقارئها شيئا، منذ مدرة زرت إحدى صديقاتي فأدخلتني إلى غرفة أخيها، لقد أذهلني المنظر الذي لم أكن أتخيله، كان شابا في نحو الخامسة والعشرين من عمره يجلس ببيجامته في ركن صغير من تلك الغرفة التي لم يكن بها موضع لنجلس من الكتب، الجدران الأربعة كانت مكسوة بالكتب، وكانت الأرض مفروشة بها، وعندما جلوسنا لم نتمكن من ذلك إلا بعد أن أزحنا بعض الكتب المتناثرة على الأرض، ذاك الشاب لم يكن يفعل شيئا سوى أنه يشتري الكتب ويقرأها، حتى أنه لم يكن يفكر بأي عمل آخر، وليته أفاد من كل هذه القراءات، بل تحولت إلى عبء عليه، وعندها أدركت بأنه شخص مريض أصيب بمرض القراءة ولسوف يأتي عليه يوم يحرق أو يبيع كل هذه الكتب، بل سيخجل من أن يحمل كتابا بيده في الشارع. أمام هذا النموذج أرى شخصا لا يقرأ كتابا واحدا في السنة، المشكلة أننا نحتاج إلى أن نقف في الوسط من الأشياء حتى نتمكن من رؤية كل ما حولنا.

لم يكن يعلم بأن هذا الحديث سيكون بمثابة اللبنة الأولى للبدء في عمله الجديد، هذا العمل الذي غدا بمثابة حياة جديدة سوف يدخلها، وروهات أيضا سوف تخفف عنه الكثير من الإرهاق، فهي تستطيع أن تقترح روايات بعينها وتستطيع أن تقدم قراءاتها الخاصة وملخصاتها حول شخصية المرأة التي يقدمها كاتب في رواية ما، يمكنها أن تضيف الكثير وتوضح ما لا يراه الكاتب أو الناقد الرجل.

يترك سيارته في البيت ويمشي نحو السوق، نحو المكتبات العامرة بالكتب الجديدة وكأنه سوف يكتب كتابه النقدي الأول الذي سوف يقدمه للناس، يقف في مواجهة مكتبة، وكم تخيل وجود روهات معه وهي تختار معه الروايات التي سوف يقرأها لعمله الجديد، تقع عيناه كالومض على عنوان رواية طالما قرأ عنها في الصحف دون أن يتمكن من الحصول عليها، ثم يلج الباب، يمد يده إلى جسد الرواية كما يمد يده إلى جسد غنيمة، يقلبها بين يديه، يمرر صفحاتها بين أصابعه، يقرأ سطرا، سطرين، ثلاثة سطور. وينظر في وجه صاحب المكتبة، يتقدم إليه والكتاب بيده ككنز ثمين، يسأله عن السعر، يجيبه صاحب المكتبة، يتقدم وينقده القيمة. للتو يشعر بفرح غامر، لقد أصبح الكتاب ملكا شخصيا له، يمكن أن يضمه إلى مكتبته العامرة التي بناها كتابا كتابا، شهرا شهرا، المكتبة التي طالما أنقذته من أمواج اليأس التي كانت تجتاحه خلال كل سنوات العزلة والوحدة، كان يلجأ وهو في ذروة اليأس

إلى صيدلية مكتبته فيمضي ساعات حتى ينسى نفسه ويخف عنه اليأس، وكم من مرة أنقذته المكتبة من اليأس، من الشعور العميق بالعدم، من المواقف الحرجة التي كان يتعرض لها في حياته، كانت دوما تخفف عنه آلام الروح وتقدم له العزاء، وتقدم له المسرة إلى درجة أنه أحيانا كان يرقص طربا وهو يقرأ ويستمع الموسيقى في هذه المكتبة المغلقة التي تتحول أمام روحه إلى عالم مفتوح على كافة العصور.

يخرج من مكتبة المدينة والعالم لا يتسع حبوره بهذا الظفر الثمين، وقبل أن يصل البيت يعرج إلى مطعم يأخذ طعاما شهيا، ثم يأخذ شرابا لذيذا حتى يحتفي بهذا الكنز الثمين الذي استطاع أن يحصل عليه.

في الطريق إلى البيت وهو في سيارة الأجرة يضع كل مابيديه جانبا ولا يفوته أن يتأمل مرة أخرى ظاهر هذه الرواية، يتأمل عملية إخراجها، ينظر في اللوحة واسم راسمها، ينظر في عدد الصفحات، ثم يلقي نظرات شوق فائضة إلى أجساد الكلمات فتتحول أمام ناظريه إلى حياة كاملة، وعندها يرى بلبلا يحط على شجرة خريف وهو ينظر في حرف / أ / ثم يرى عصفورين يتقافزان جوار ساقية وهو ينظر في حرف / صٍ / وتتحول الكلمات إلى مناظر والسطور إلى دروب والجمل إلى بحار وأودية وجبال.

يعود إلى حيث يجلس عندما يشير إليه السائق بأنه وصل البيت، يناوله الأجر ويدخل البيت، يتناول طعامه وشرابه ويأخذ قسطا من الراحة فتتهيأ كل ذرة فيه نحو

تلقي صفحات أولية بمتعة بالغة. إنه يحافظ على حميمية العلاقة بين ذراته وذرات النص، بين حواسه وحواس النص، يتناول صفحات معدودة وينصرف إلى شأن آخر، في اليوم التالي يأتي إلى صفحات أخرى، يغير أو قات تلقي النص، في الصباح الباكر قبل ذهابه الجامعة بساعة، في وقت قيلولة الظهيرة، قبل النوم، في وقت النوم والسهر حتى الشفق، وينام معه الكتاب في الفراش، يستيقظ معه صباحا، يتحول إلى الزوجة تارة، يتحول إلى الأولاد تارة أخرى، إلى موائد سهر عامرة بالأصدقاء، إلى مستقبل. تشرق عليه شمس النص، ويهبط عليه ظلامه وهو يشعر بلذة روحية بالغة، وهو يتناول الحروف والنقاط وعلامات الترقيم والإشارات والسطور والجمل، تشرق روحه أمام إشراق النص البهي. إن هذا الكاتب يمتلك موهبة استثنائية.

ويتذكر تلك النصوص التي لم يستطع الوصول إلى صفحاتها العشر الأولى بسبب فقدانها لا ي نكهة أو لذة تشجعه للاستمرار، خوائها من أي ومضة إشراق، أو لحظة حياة، من عصفور أو حمامة أو جدول أو سمكة.

وعندها يقسم ألاّ يقرب من اسم هذا الكاتب حتى لو رآه في صحيفة عابرة.

هاهو النص الثري الذي يضيء ويظلم العالم، الذي يزلزل الحواس، ينعش الروح، ويُجري الدموع من العينين، النص الذي يجعله يقهقه بأعلى صوته، يصمت بأعلى

صمته، يخشع بأعلى خشوعه، هاهو النص البهي الذي يبدّ ل أحول النفس كما يبدل الزمن فصول السنة.

إنه فنان يعرف كيف يقود الكلمات إلى الأراضي الخصبة والينابيع العذبة الرقراقة كما يفعل الراعي الماهر، يعرف كيف يمد يديه إلى ثدي الكلمات ليستخرج حليبها ولبنها وزبدتها وقشدتها ويقدمها في أطباق شهية.

ياله من فنان ماهر هذا الذي أبدع هذا النص المذهل، لا بد للمرء أن يقتني أي شيء يراه لهذا الكاتب حتى لوكان في صحيفة عابرة.

ينتهي من القراءة الأولى، ثم يختلي بنفسه يتأمل في كل مابثه إليه النص، ويعود إليه كرة أخرى. يفرغ من السطوع الثاني الذي يكتشف في محرابه مالم يكتشف في السطوع الأول، ويخرج من محراب الكلمات، ينتظر حينا. ثم ينظر في أمر إعطاء هذا النص الثري حقه من النقد الذي سوف يحتل صفحات من كتابه النقدي. يرتدي ثياب العوم في منتصف الليل ويقذف بجسده في مياه النص ويغوص في أعماق مياهه العذبة، ثم يخرج ويعكر المياه، ويغوص فيها وهي عكرة، ثم يخرج ويغوص فيها وهي راكدة، ثم يخرج فيغوص فيها وهي صاخبة هائجة.

إنه مع كل سباحة وغوص في لون وشكل يستخرج ما لم يستخرجه من قبل، ويأتي بصيده الثمين بعد كل هذه المراحل، يشعر من جديد بأنه انفتح على النص مرة

أخرى وانفتح النص عليه مرة أخرى. ينظر في قلمه وفي الصفحة البيضاء ويباشر في عمله وهو يضع الكلمة الأولى في مسودات مشروع لا يدري أين ينتهي به.

* * *

في العاشرة من ليلة اليوم التالي اتصلت به روهات على هاتفه الأرضي فبشرها أنه بالفعل بدأ في عمله الجديد وقال بأن لها فضل كبير على بدئه بالعمل لا ن حديثها هو الذي جعله يتشجع للمباشرة في مثل هذا العمل وتحدث لها عن سحرية الرواية الجديدة التي قرأها بدهشة.

ثم قال بأنه يحاول الآن أن يضع المسودات الأولية، ويضع خطوطا رئيسية للروايات التي سوف يتناولها بالتحليل، بدأ يتحدث بفرحة غامرة وكأنه في صبيحة يوم زفافه:

الدخول إلى عالم الرواية الرحب ياروهات، هو خروج من عالم الواقع الضيق. عالم الرواية يفتح أمام المخيلة مجالات ورؤى أوسع أفقا 0 في عالم الواقع أنتِ محكومة، بل بالأصح أنت مقيدة ومكبلة بتابوهات الواقع التي تكاد ترسم لكِ كل خطوة، وكل كلمة، وكل نظرة.

بيد أنك في عالم الرواية تحلقين في فضاءات الإنسان الرحيبة، ترين الإنسان كما هو بفطرته ومدركاته، ترينه بخيره وشره، بقمة نجاحه وبذروة سقوطه، ترينه بمجده وعاره.

لذلك فإن مهمة الروائي مهمة بالغة الحساسية والإحراج، فهو وفق مهمته عليه أن يكون فيلسوفا، وشاعرا، وفقيها، وحكيما، وقاضيا.

يكون واقعيا إلى أقصى حد، ويكون خياليا إلى أبعد مدى ذلك أنه يكتب كتاب الحياة، فالقارئ والناقد لا يطلبان من الروائي كما يطلبان من الشاعر، أو الفقيه، أو عالم الفلك، أو الفيلسوف.

إنهما يطلبان من الروائي عالما كاملا بكل تلك المعارف.

كل رواية جديدة عليها أن تحمل عالما جديدا حتى بفراشاته وهبوب رياحه، وإلا فإنه يفشل في مهمته، ويفشل في أن يكون له قراء كأولئك الذين يبحثون في المقاهي والأماكن العامة عن قارئ يستجدونه ليقبل منهم نسخة إهداء من رواياتهم تلك، أو يرسلونها عبر البريد لا ناس بمجرد الوقوع على عناوينهم.

عندما يمد الروائي الخطوة الأولى نحو نسيج عالم روائي جديد فإنه بذات اللحظة يكون قد سحب الخطوة الأخيرة من عالم الواقع ينسى تماما بأنه سيخرج غدا ليجالس الناس وسيحدثونه عما قدم في عمله. ولذلك ترين بأن الإدانات الاجتماعية أو الدينية، أو السياسية تثار على الروائي بعد أن يفرغ من عمله ويجالس الواقع.
هنا يمكن القول أن عالم الرواية يحقق مساحة أرحب للشجاعة وانطلاق الفكر للروائي من عالم الواقع الذي يعيشه، ودوما فإن الروائي يقول عبر روايته ما لا يجسر على قوله في المواجهة الميتافيزيائية.

وهنا تكمن متعة قراءة الرواية، وكذلك تكمن خصوصيتها وأهميتها.
وأظن أن التعبير الأكثر دقة هنا هو أنه رغم كل هذا الخروج عن عالم الواقع إنما هو بذات اللحظة التصاق شديد بدقة تفاصيل الواقع الذي يغدو مسبحة في كف الروائي.
وماذلك إلا لا نها تقدم الإنسان لنفسه، وتقدم له صورا خفية عن الواقع الذي يعيشه رغم كل ماتتسم به من خيالية بالغة.
كل هذه المقومات تستقطب القراء على مدى العصور لعدم الضجر من قراءة الرواية.

تحتمل أن تقدم بين صفحاتها معظم الأجناس الأدبية دون أن يؤذي ذلك فنيتها وخصوصيتها كجنس أدبي مستقل.

تقول: منذ أيام كنت أتساءل مع نفسي عن أهمية القراءة، الإنسان الذي يقرأ كثيرا تراه غنيا في حديثه ومهما طال به الحديث لا يضجره السامع، بيد أن الذي لا يقرأ ليس لديه شيء يقوله، إن حديثه مهما كان جادا لا يكون إلا عبارة عن كلمات مباشرة يلقيها على السامع ويبقى يكررها أينما حل.

أعرف رجلا سمعت منه بعض الوقائع التي وقعت معه مئة مرة لا ن ليس لديه شيء آخر يضيفه، الذي لا يقرأ يكون من العسير أن يكتشف شيئا جديدا، وحتى لو اكتشف فإنه لا يكون مدركا بأبعاد هذا الاكتشاف الجديد وبقيمته المعرفية، إنه فقير ياسيدي بكل أشكال الفقر، إضافة إلى أنه يمكن أن يجرح الآخرين بألفاظه الحادة والمباشرة دون أن يدري، ولذلك فإنني كثيرا أعتبر نفسي لم أسمع كلاما تم توجيهه إلي لا ن هذا القائل كان عليه أن يعبر عن موقفه بطريقة أكثر لباقة، فهو لا فرق لديه سواء أكان يوجه كلامه لا نسان أو لحيوان، هي الطريقة ذاتها. بينما حديث الذي يقرأ يقدم لك المعلومة، ويقدم لك حلاوة وعذوبة اللغة، يقدم لك إشراقة البسمة التي تحمل الكلام إلى سمعك، ويفوح برقة الإنسان وهو يحدّث إنسانا، القراءة ياسيدي هي الغنى التي لا غنى عنها.

وتخيلت كيف أنها عندما تلتقي إحدى صديقاتها أو قريباتها اللواتي يحدثنها عن أفكار الزواج، أو عن شبان يتقدمون إليهن، تطلب ألا يسألن عن أي شيء قبل سؤال القراءة، حتى أنها قالت لا بنة خالتها كليزار التي تدلعها بـ / كفوكي / والتي تزوجت منذ ثلاثة سنوات: عليك أن تعلمي ماهو رصيده من القراءة، ما هي درجة حالته المعرفية.

وعندما راحت تشتري حاجات الزفاف أقنعتها أن تأخذ خطيبها كذلك إلى بعض المكتبات لشراء بعض الكتب، وكانت الحادثة الأولى التي ما يزال الناس يتحدثون بها، فقد حملت / كفوكي / معها إضافة إلى لوازم البيت مكتبة صغيرة. ولا تدري لماذا لم تستطع أن تروي له هذه الحادثة فقالت:

أوافقك أن الدخول إلى عالم الرواية الرحب من قبل شخص يرغب في الحصول على شيء من معرفة الإنسان هو انفتاح على عالم جديد.

عالم الرواية يستقطب جمهورا هائلا من مختلف شرائح عشاق القراءة لا ن هؤلاء القراء يرغبون في قراءة ذواتهم من خلال قراءة الرواية التي تتحول في بعض مراحلها إلى مرآة ينظر فيها القارئ إلى ذاته بنقاء وهذا حدث معي كثيرا في أعماق الليالي الصامتة وأنا أتقلب في الفرش وأقلب صفحات رواية جديدة أقرأها.

وليس عبثا أجدادنا الذين كانوا يمضون الليالي الطوال على ضوء الفوانيس لقراءة الروايات الضخمة التي تحتوي آلاف الصفحات، ذاك الجمهور العريق والمحب

للروايات الطويلة على أضواء الفوانيس والقناديل واللمبات ليلا، وفي النهار تحت الأشجار والذهاب والإياب على حافة الترع والطرق الزراعية القروية الهادئة وهم يقلبون صفحات تلك الروايات ويستمتعون بالدخول إلى عالمها، هذا الجمهور الذي يمتد إلى أيامنا هذه ومازال يتلهف لقراءة الرواية والدخول إلى عالمها.

هنا يمكن للرواية أن تشفي المهووسين وكذلك المرضى العصابيين، إنها تؤدي دور الموسيقى في تقديم العلاج للمرضى.

تقدم الرواية شخوصا يمكن أن نتعلم منهم، يمكن أن نحذو حذوهم في العقل والحرية والجنون معا لا ن الرواية عالم صادق جريء ويحمل كل حساسيات الإنسان تجاه قضية النقاء الروحي وتجاه الشفافية الإنسانية التي بات يفتقدها انساننا المعاصر.

الرواية هي الحبيبة وهي الأم التي تنتظر أولادها ليعودوا من العمل متعبين فيرتاحوا على صدرها ويرضعوا حليبها، الأم الأبدية التي دوما تنتظر أولادها في سكنهم الآمن.

محظوظ ذاك الذي يشتري مثلك كل مطلع شهر رواية جديدة لتنتظره ثلاثين يوما إلى أن يأتي بغيرها، فتنتظره ثلاثين يوما إلى أن يأتي بغيرها.

- أظن أن ذلك يختلف عن القصة القصيرة رغم أن غالبية الروائيين يكتبون قصصا قصيرة، وغالبية القصاصين يكتبون الرواية.

- لأن القصة القصيرة هي جزء من رواية في نهاية الأمر، والرواية هي قصة طويلة، ولكن بتقنيات وتعابير وفنية ولغة مختلفة القصة القصيرة هي الثيمات التي تدور في عالم لا معنى له، تشكل نسيجا حول الفراغات اللامتناهية، تفتش عن زوايا الجمال في فضاء مفتوح، تفتش عن بقايا نبضات أخيرة في قلب يرفض ألا ينبض، هي الثيمات ذاتها التي لا يعجبها اللامعنى وتسعى بكل طموحها لا يجاد شيء ما في اللاشيء، حتى الكلاب تميل لا ن تنبح نباحا مختلفا في أوقات ما، في طقوس ما.

أعني نزعة التمرد الأبدية على المألوف الذي يأكلنا كما تأكل النار الحطب، هذا السر الذي يقف خلفه كل ذاك الأمل المتفجر الذي يقدمه قصاصو العالم على مر العصور. ذاك السر الذي يجعل القصاص أن يرفض النوم ثلاثة أيام احتفاء بعثوره على جملة مضبوطة يمكن أن يبدأ بها قصة قصيرة.

من أي بقاع يأتون بتلك الأحمال الهائلة من الأمل المتفجر، وكيف يجعلون القراء يصغون إليهم، يتركون أعمالهم وأثقالهم ونساءهم وأولادكم ومساكنهم لينعموا بدفء القصة وأنسامها.

لأن القصص القصيرة تقول لقرائها: إننا نمنحكم أشياء أثمن مما تركتم، نمنحكم ما ليس لديكم، نقدم لكم تلك الوسائد التي تأخذكم إلى عالم الخلود والنور والبهاء 0 أشياء وأشياء ضائعة منكم، ضائعة من كوكب الأرض نحاول أن نسترجعها لكم وللأرض.

دوما تقول القصة القصيرة لقصاصها: لست أنت الذي تريد أن تكون قاصا، ولكن أنا التي أريد أن أكونك، لست أنت من يريد أن يكتبني ويرويني، ولكن أنا من أكتبك وأرويك وأقدمك.

فكرة القصة تلح على القاص ولا يستطيع فكاكا من الهيمنة القصصية، إنها توصله إلى ذروة المعاناة، لن يستطيع أن يغمض عينيه، أن يستقر ما لم يكتبها، وأحيانا تبلغ في عنادها إلى التحدي مع القاص فتتحداه أن يستطيع أن يخلد للراحة أو حتى الخروج من البيت قبل أن يكتبها، أو حتى يكون قادرا على إجراء مكالمة هاتفية، فيستسلم لطغيانها وجبروتها، وهو يحاول أن يقنع نفسه بأنه هو الذي يكتب القصة ويتحكم بزمام مفاصلها. وأما المتعة فتكون بعد إنجازها فيكون حاله كحال الذي أدار الباب الحديدي الضخم على نفسه دون أن يدري بأنه نسى المفتاح في الخارج، وكل محاولاته تفشل في إسماع من هو في الخارج ليأتي ويفتح عليه هذا الباب، ينظر إلى الأعلى حيث النافذة المرتفعة على مسافة عشرة أمتار والمحكمة بالبللور، إنه يفعل أي شيء ليُخرج نفسه من هذه الغرفة، فيستعين بأصابعه وأسنانه

وقطع النقود المعدنية في جيبه حتى يحفر حفرا صغيرة، وفي النهاية يفلح بأعجوبة في أن يحفر مواطئ لقدميه في الحائط فيتسلق كالقطة إلى أن يبلغ النافذة المرتفعة الوحيدة ويخرج، عندها فقط يشعر بنشوة وهو يومئ برأسه لينظر إلى المسافة التي تسلقها لمدة يومين متواصلين، تلك هي النشوة التي يشعر بها كاتب القصة عندما يفرغ من عمل جديد.

يقول لي صديق قاص: أقنع نفسي في كثير من الأحيان بأن الكتابة تحقق لي المسرة حتى لا أعترف أمام نفسي بقوتها علي وأنني أتنهد تحت ثقلها وقد تمكنت مني كل التمكن. والحقيقة فإن القراءة تقدم المسرة والمعرفة معا، فأن أقرأ مجموعة قصصية لمدة ثلاث ساعات مثلك هذا أمتع لي من أن أمضي ثلاث ساعات في أرق ومخاض كتابة قصة جديدة، والواقع ياصديقي فإن رغبتي الحقيقية تكمن في عدم تمكن القصة مني بهذا القدر الذي لا مخرج منه. تكمن رغبتي فيما لوكنت قارئا، قارئا جيدا كما أنا مستمع جيد للموسيقى، ومشاهد جيد للسينما والفن التشكيلي، ولكن كل محاولاتي تبوء بالفشل لا ن القصة وجدت طريقها إلي، وكل هذه الأحاديث الجانبية كهذه هي في الواقع محاولات للتهرب منها، ولكنها بنفس الوقت أحاديث عنها وفيها، وهكذا فحتى الهروب منها يكون إليها.

قد تسألين ياروهات: لماذا يكتب الكاتب إذن ؟! أقول ببساطة: لا نه لا يستطيع أن يعيش ثلاثة أيام إن لم يكتب.

وكذلك فإنه يشعر بإثم عظيم إذا لم يتمكن من تقديم كتابات تعبر عن قوته وتضيف إلى كتاباته السابقة، ولعلي أرى أن الكتّاب الذين انتحروا ماقاموا بذلك إلا بعد أن تأكد لهم أنهم ماعادوا يقدرون على إبداع كتابات أعظم مما أبدعوا.

تتشكل خيوط القصة القصير لتؤرخ إنسانا في موقف، وتؤرخ موقفا في إنسان، تؤرخ المجد وكذلك تؤرخ العار، كل هذه الصيحات القصصية المدوية في عالم الإبداع الأدبي هي دموع تنهمر من ضمير الإنسان ومن روحه، تحاول أن تُلفت النظر إلى رؤية هذا الإنسان إلى اللحظات القصيرة التي تحمل أحداثا لا يلتفت إ ليها أحد. وظيفة القصة القصيرة تكمن في مقدرتها على أن تجعلكِ تلتفتين لوقائع مرت وفاتك أن تتأملينها، وهي بذلك تمنحك هذه الفرصة الذهبية مجددا **0** القصة هي لقطة، وهي لفتة صغيرة في عالم كبير، إنها يوم واحد، أو ساعة واحدة، أو حتى لحظة واحدة بعكس الرواية التي تكون هي السنة كلها بكل أيامها وتقلب فصولها. كل يوم تنفتح أبواب جديدة أمام قصاصي العالم ليقصوا قصصا جديدة لم يكتبها أحد من قبلهم، يكتبوا قصصا تستوعب عقل العالم وجنونه، تستوعب مجده وإخفاقه، تستوعب ثقله وخفته.

تتشكل القصة القصير نقطة نقطة.. حرفا حرفا.. فضاء فضاء.

الواقع أن الموهبة الإنسانية لوحدها لا تكفي للإبداع، ولكن ثمة تفاصيل لا يراها ولا يلمسها ولا يحياها إلا المبدع نفسه، ثمة أسرار لا تنكشف إلا أمام روح المبدع ذاته، إنه يمتلئ بالعالم والحياة والميتافيزيقيا مع كتابة كل قصة جديدة، ثمة قوة مجهولة تلقنه حروف هويته المجهولة ككائن مستقل في العالم، وهكذا فإن الكاتب يعيش حياة استثنائية مغايرة لحياة الناس أجمعين.

القصة هي هواه الوحيد وعندما يبعد عنها يشعر بأنه خسر العالم برمته لذلك يهرع عائدا إليها بحرقة وألم وهو ينفجر بكاء وندما على تركه لها فيقدم لها الاعتذار ويطبع على جبينها قبلات ساخنة.

تنير القصة الدروب أمام الروح البشرية، تفسح هامشا أوسع للرؤية، لرؤية ما لا يُرى.

الكلمات القصصية هي القناديل العالية المعلقة في دروب البشر، إنها القناديل الكبرى وهي الرشيد إلى نهارات لا تنتهي من الضوء، والكاتب الذي يشتغل في الكلمات المضيئة، هو شخص يضيء ويمتلئ إشراقا وحياة، ولذلك يبدو في الظاهر أكثر ظلامية، أكثر بساطة، والحقيقة إنها ظلامية الشروق، والحقيقة إنها بساطة الامتلاء.

أقول لكِ أشياء أكثر حساسية ياعزيزتي، فإن هذه الكلمات المضيئة ذاتها التي تتكون منها القصة القصيرة في كثير من الأماكن تحرق روح الكاتب وتلهب حواسه، وعندها لا يجد أي مادة يمكن لها أن تدنو من هذا الاشتعال الروحي، ولذلك يقضي

الكاتب احتراقا بنور كلماته، أو تتساقط عليه كتبه التي قام بتأليفها فتقضي عليه كما يقضي مخترع الكهرباء بماس كهربائي.

قالت: لكنها متعة الإبداع والفن التي لا تفوقها متعة، وأظن أن الفنان هو أكثر الناس تذوقا للحظات الفن العذبة التي يكون في محرابها ساعة العمل.

قال: يرتقي الإنسان ويتخلص من ثقل التكرار في حياته وعمله، وحتى في وضع القبلات على وجه حبيبته على قدر ما يكون فنانا. الفن هنا يجعله كائنا جديدا يقوم بعمل جديد كل يوم، وعلى قدر سعة الذوق الفني لديه يتذوق متعة العمل الذي يقدمه. يجد الإنسان نحو اكتشاف الفنون بأجناسها المختلفة ليفجر من خلالها طاقة الشاعرية الكامنة في عمقه.

يعجز الإنسان أن يكون شاعراً إلاَّ إذا كان فناناً، ويعجز أن يكون فناناً إلاَّ إذا كان شاعراً. يفشل في التعبير عن حجم شفافيته إذا كانت حاسة الذوق الفني لديه متدنية.

كل الأعمال العظيمة تحتاج إلى عظمة روح الفن في نوازعها، حتى تلك الأعمال السطحية فلابد أن تحمل لمسات فنية سريعة تمكنها من تحقيق حضور ولو لا يام قلائل.

الفن هو مزيج من شاعرية الإنسان وأحلامه والإنسان الفنان الذي يكون الفن مهنته هو مخلوق سحري بكل المواصفات، لذلك يُنظر إليه على أنه نجم مضيء، وبذات

الوقت هو كوكب جمالي، لا ن النجوم هي كواكب ومصابيح جمالية تزيِّن السماء. وهذا تعبير عن لبّ المقارنة بين مصابيح الأرض ومصابيح السماء، الفنان هنا يزيّن ليل أرواح الناس، وبالطبع يكون فبل ذلك قد زيّن ليل روحه وليل أرواح المقربين جدا إليه.

كل إنسان يمكن له أن يمارس شيئاً من الفنية في كاره وحتى في حديثه وخطواته وطريقة ارتداء ثيابه.

يمكن أن يبني بناءً فنياً، يمكن أن يصدر مجلة فنية، يمكن أن يطبع على عيني حبيبته قبلات أكثر شاعرية وفنية، كما يمكن له أن يتحوّل إلى كائن "جلف" فاقد لكل حالة شاعرية وفنية في ذائقته، يمكن له أن يتحوّل إلى كائن أثقل من جبل في أمسية ربيعية فائقة الشاعرية، يمكن أن يمسي فراشة ترفرف بجناحيها على رحيق زهرة موسمية تضيء عطراً. حتى عندما تهتفين لي يمكن أن يحدث ذلك بفنية وأنت تستخدمين الهاتف، تجلسين أو تستلقين بفنية مع الحديث.

ماهو أكثر بهاءً في هذه الموازنة، أن فاقد الفن لا يتذوقه، وأن واهب الفن هو أكثر الناس تذوقاً وانتعاشاً بنسماته. ثمة لحن ينساب في حافلة يقدّم لا شخاص غذاءً روحياً، ولا يقدّم لا خرين غير ضجيج، إنهم عجزوا عن إعطاء لمسة فن واحدة، فعجزوا عن استقبال لمسة من فن.

استطاع الإنسان أن يعبّر عن فنيته الروحية بقوة، كما استطاع أن يعبّر عن بروده الروحي بقوة، استطاع أن يكون في منتهى الجبروت والقسوة والموت الإنساني فيغزو ويبطش ويلحق المظالم والويلات بأهله. استطاع أن يقدّم أروع الألحان: اللوحات، الآداب، الأشكال المعمارية، الأزياء.

في النهاية ذهبت الحروب، ولبث الفن. الأبناء يلتفون حول إرث أجدادهم العظماء، يقطفون الأزاهير وعناقيد الحكمة، يتجنّبون إرثاً سيئ الذكر، يمقتون حتى الأسماء الحاملة لتاريخ خزي.

رسالة الفنون ياروهاتتي تكمن في أنها تميز بين الطيب والخبيث، تقف حدّاً فاصلاً بينهما.

رسالة الفن هي رسالة حق وجمال ومحبة. بمقدار ما يهب الإنسان الفن ويخلص له، يهبه الفن لا لئ الجمال الروحي، كل الإبداعات الفنية التي غدتْ علامات بارزة في أجناسها، سجّلت خلودها على قدر ما طفحتْ بفنية عالية، وهنا ياروهات يمكن لك أن تمارسي الفن حتى من خلال إعطاء درس لتلاميذك الصغار فتكوني فنانة بنظرهم أكثر مما تكوني مدرّسة.

أريد أن أقول لك شيئا دوما أنساه وهو أهمية دورك في تربية الأطفال إلى جانب التعليم، المعلم في نظر تلاميذه هو عالم من المعرفة والنضج والضوء، وعلى هذا المفهوم يتولد شعور بالتبجيل والتقدير في نفوس هؤلاء التلاميذ تجاه معلميهم، فهو

يعرف ما لا يعرفوا، ويدرك مالايدركوا، ويرى ما لا يروا، والتلميذ في نظر معلمه مهما كان متقدما في الصفوف فإنه مثل طير وليد يتعلم الطيران للتو، ولذلك فإن أي تلميذ وفي أي مرحلة دراسية يحب أن يكون معلمه رؤوفا.

ومهما يكن فإن التلميذ يبقى يلمس شيئا من الأبوة التربوية في شخصية وسلوك معلمه إلى جانب منارة المعرفة وشعلة الوعي، ولا يكون المعلم ناجحا إلا على قدر ما يلمس شيئا من البنوة في تلاميذه. عندما كنت في القامشلي كان المعلم عندما يدخل أي بيت يكون دخوله كدخول إمام، كان الناس ينظرون إليه على أنه إمام المعرفة ويفتحون أبوابهم أمامه دون استئذان ويسلمونه فلذات أكبادهم مطمئنين بأنه يحمل تجاههم مشاعر بابوية.

المعلم يقوم بمهمة اجتماعية وإنسانية وتربوية وبنائية سامية، إنه يضع لبنات الإنسان، ويبني عمارة المجتمع والمستقبل.

من هذه الوقائع الحميمية تكتسب شخصية المعلم وقارا خاصا لدى تلاميذه ولدى أغلبية الناس، ومهما كبر التلاميذ وبلغوا مراحل النضج الجسمي والفكري، بل حتى لو أصبحوا معلمين، فإن هذا الوقار يبقى يزيّن جدلية العلاقة التي تربطهم بمعلميهم، وتلبث ذكراهم عطرة طيبة في كل مناسبة، وقد يتحدثون لتلاميذهم هؤلاء عن تلك المزايا الحميدة والخصال الطيبة التي كان يتمتع بها معلموهم الكبار الذين انتقلوا

إلى رحمة الله، أو الذين تقاعدت بهم السنون. أتسمعينني ياروهات أم أن الخط توقف ؟

قالت على عجل: بل أنا مستغرقة في حديثك يادكتور، أرجو أن تكمل.

قال: مهمة المعلم لا تنتهي لدى خروجه من باب المدرسة، أو من درس خاص، بل هي شبيهة بمهمة الأديب، أو لنقل الروائي، فهما يلبثان في بحث مستمر عن مصادر التطوير الفكري والتثقيف الذاتي.

يطور المعلم دائرة معارفه بالاطلاع والمناشط التثقيفية والاجتماعية والتربوية، فهو لن يؤدي وظيفته المعرفية والتعليمية بصورة حسنة ما لم يكن ملما بتفاصيل إيقاع المجتمع الذي يقوم فيه بهذه المهمة البالغة الخطورة والحساسية. المعلم هو إمام للمعرفة شعلة استنارة متقدة، وهو شخص متكلم بامتياز ومتقن لا لفاظ التأثير والإقناع، يمضي وقتا طويلا في الحديث والتمهيد لدرس جديد، ثم يتولى شرح هذا الدرس وفق مفهومه وتطلعاته المستقبلية فيستأنس لحديثه التلاميذ إلى جانب شعورهم بالمتعة لاكتساب معارف جديدة والتخلص من الأميتين التعليمية والمعرفية. الإعجاب هنا يؤدي دورا بالغ الأهمية ياسيدتي، فإعجاب التلميذ بأسلوب وشخصية المعلم ييسر المهمة بشكل أفضل.

الإعجاب يأخذ ترسخه في الذات البشرية أكثر مما يترسخ الحب، بل إن الحب هنا يتولد من الإعجاب بذات الشخص وقدراته وملكاته وهيمنته الفكرية، والإعجاب

هنا بالنسبة للتلميذ هو شكل متطور من أشكال القدوة الحسنة، ومن جهة أخرى فإن هذا الإعجاب ذاته هو الذي يجعل أسلوب إعطاء المادة مقبولا أو مرفوضا بالنسبة للتلميذ المتلقي، ففي بعض الأحيان لا يسكن الطالب لا سلوب معلم بعينه في إعطاء مادة، ويسكن لا سلوب معلم آخر في إعطاء ذات المادة، أو أنه يستاء من طريقته في اختيار الألفاظ المعبرة، أو قيامه بحركات تخرجه عن وقاره في نظر الطالب.

قالت: بمناسبة البدء في عملك الجديد يا حنيف وأنا سعيدة به، وسعيدة أكثر لا نني سأحرص أن أطلع على المسودات الأولية لهذا العمل، كنت أريد أن أقول لك: هل يمكن أن تكتب عملين في وقت واحد ؟

قال: هذا محال ياروهات، عندما أبدأ في عمل فهو يأخذ كل وقتي وجهدي وتفكيري، كل شيء يكون مكرسا له، إنه كالطفل الصغير الذي يستحوذ كل عناية أبويه حتى يكبر قليلا وينطلق، ثم يأتي غيره ليحتل تلك المكانة.

وأضاف ببسمة: إذا استطعت أن أكتب عملين في وقت واحد فسوف أكون قادرا على أن أحب امرأتين في وقت واحد.

* * *

كل مساء اعتاد أن تهتف له بعد العاشرة فيدوم الحديث إلى ساعة متأخرة، وأحيانا يدركهما ضوء النهار وهما مازالا يتحدثان بحميمية، وبين فترة وأخرى يطلب منها أن تغلق ليعاود هو الاتصال، ثم بعد فترة أخرى تطلب منه أن يغلق لتعاود هي الاتصال وتقول له: إمكاناتنا جيدة يادكتور لا تحرجني ودع اتصالي هو الذي يبقى.

وتعلق قائلة: أحيانا عندما تصل فاتورة عالية بعض الشيء بسبب كثرة أحاديثنا مع أقربائنا في تركيا يقول أبي: إنها بالنسبة لي كتدخين سيجارة. ويقول بأنه سوف يكون سخيا في نمط حياته ويصرف دون حساب مادام لديه مردود جيد من الزراعة.

نملك في هذا الوقت ثلاث آبار ارتوازية تروي مساحة ألفي دونم من القمح والشعير والعدس والقطن، إضافة إلى بعض بساتين الخضار والفاكهة.

فتحنا أعيننا على النعمة ومانزال نرفل فيها، لا تخف ياسيدي إننا نعيش في بحبوحة، لن يكون بوسع أحد يقطع هاتفنا بسبب فاتورة حتى لو تحدثت معك طوال الليل والنهار.

أنا قلقة لا ن راتبك الذي لا تملك غيره ربما لن يكفي لتسديد فاتورة الهاتف فيما لو أصررت وحادثتني كل هذه الأوقات الطويلة.

قالت ذلك وهي تشعر بإثم أنها لم تقل له الحقيقة، فعندما تباشر الاتصال ينتابها إحساس عميق بأنها تجره إليها حتى يكون معها هنا، وهو إحساس يحقق لها راحة هائلة، بينما وهو يباشر الاتصال ينتابها إحساس بأنه يجرها حتى تكون هناك.

ابتسم قائلا: لا تخافي، لقد أخفضوا قيمة المكالمات بنسبة جيدة، ولا أظن أن أحدا قد شكرهم قدر العشاق الذين يمضون ساعات طويلة في الحديث دون أن يدروا بمرور الوقت.

التجار وأصحاب المصالح عادة تكون أحاديثهم مركّزة ومحسوبة لا تستغرق أكثر من دقيقتين لا ن ذلك من شأنه أن يُنقص من نسبة الأرباح لديهم.

العشاق هم الذين يعانون دوما من قطع خطوط هواتفهم بسبب تراكم الفواتير التي يعجزون عن تسديدها.

- كل يوم يادكتور تزداد عفة ونقاء وعزة نفس، ثلاث سنوات مضت على تخرجي وليتني استطعت أن أنساك لحظة واحدة، كنتَ تلقي علينا المحاضرة، وكانت عيناي تتعلقان بك وقلبي يخفق إعجابا بشخصيتك وسعة ثقافتك ومقدرتك الهائلة على إيصال أفكارك إلينا. لا أدري لماذا دوما

أتخيل تواضعك كتواضع العشب، كنت أقول لصديقاتي بأن هذا ليس أستاذا فحسب، إنه ملخص للجامعة كلها.

وأحيانا كنت أوبخ إحداهن لا نها وضعت ساقا على ساق في حضرتك، لم يكن بوسعي أن أحتمل ذلك، كنت أحس بأنه سلوك لا أخلاقي لا يليق أن تقوم به تلك الزميلة وأنت واقف على قدميك تنير عقولنا بمحاضرة جديدة فيها منك أكثر مما فيها من ضمن المنهاج، وكنّ يقلن بأنني أقول ذلك لا نك قريبي ولا نك ابن بلدتي، وهذه القرابة هي التي تجعلني أشعر نحوك ذاك الشعور، لكن أبدا، ورغم أن رائحة الشمال الحبيبة كانت تفوح منك بقوة وربما كنتُ أنا الوحيدة التي أشمها، فإن إعجابي بشخصيتك فاقت كل تلك التصورات، كنت تمثل لي التوازن، ونقاء وعفة الإنسان، كنت تمثل لي المستقبل المشرق الذي يقول أن الإنسان بخير.

كانت إحدى صديقاتي دوما تعلق: غدا عندما يأتي سأذهب إليه وأطلب يده لك، مارأيك ياروهات.

لقد علمتني إضافة إلى المنهاج كيف يحافظ الإنسان على قيَمه، ويتمسك بمبادئه وعزة نفسه، ويستغل وقته لتحقيق المزيد من النجاح والتفوق والمعرفة.

كنتَ أحيانا تخرج من المنهاج لتتحدث لنا عن خبرتك في الحياة وعن مفاهيمك للكثير من القيم، وكنتُ أعود إلى السكن الجامعي لا قرأ كتبك وأناقش زميلاتي وصديقاتي حول مضامينها. كانت تلك الكتب التي جلبتها معي إلى البيت تزيدني معرفة بشخصيتك وكنتُ دوما مترددة من أن أعرض عليك أن نلتقي لقاء خاصا خارج الجامعة. فكرتُ كثيرا وخطرت لي أفكار كثيرة كأن أقول بأن لك بعض السلام من طرف أهلك، أو أي شيء آخر تجعلك توافق على لقائي، لكن فشلت كل محاولاتي المترددة مع نفسي.

عندما تخرجت وعدتُ إلى بيتي حاملة الإجازة وتعينت بموجبها معلمة لمادة اللغة العربية في إحدى ثانويات / المالكية / أو كما يقول أبي في / ديركا حمكو /، قلت بأن كل ذلك تحول إلى شيء من الماضي الذي لا يعود، وبقيت أجاهد نفسي شهورا طويلة، لكنني في النهاية استسلمت لقوة هيمنتك على فكري وقلبي ومشاعري، وبات التجاهل ضربا من المحال إلى أن وصلت مرحلة اتخذتُ عهدا فيها على نفسي ألا أتزوج إن لم يكن لي نصيب معك، سأبقى على ذكراك وهذا الحب سوف يكفيني.

كل هذا دون أن يكون لي حق في أن أفرضه عليك، ولعلك الآن تكون مرتبطا مع امرأة وهذا من حقك لا نه لم يكن بيننا شيء حتى أقول بأنك خنت العهد. وكنت

قبل عودتي إلى البيت بأيام استطعت أن أحصل على رقم هاتفك المحمول من مقسم الكلية ودوّ نته على دفتري.

عدتُ إلى ذاك الدفتر وبدأت أكتب لك المشاعر التي أشعرها نحوك، وكنت كلما أسمع لحنا لا أتردد من أن أرسله إليك، كلما أرى منظرا جميلا لا أتردد من أن أرسله إليك. كان كل ذلك يخفف قليلا من لهيب عنفوان شوقي إليك.

وتذكرت بأنك ذات يوم قلت بأنك معجب بأغنيات عبد الحليم حافظ وتثني على بعض أغنياته بصورة خاصة، وكانت أغنية / أنا لك على طول / من ضمن الأغنيات التي أثنيت عليها، ولذلك أرسلت لحنها إليك بعد أن بذلت جهدا جيدا للحصول عليه وتسجيله في ذاكرة الهاتف المحمول. كنت تقول بأن ذاك الزمن الجميل قدّم إبداعات حقيقية في شتى الميادين الأدبية والفكرية والفنية والسياسية والدينية والجامعية لا سماء أصبحت رموزا وقمما في تاريخنا المعاصر.

ثم بشيء من السخرية ذكرت بعض الأسماء وكلمات من بعض الأغنيات الجديدة وقلت: هذه هو ماقدمه هذا الجيل، هذه الأسماء هي عناوين ورموز هذا الجيل.

كنت تذكر أسماء بعض الفنانات والفنانين وتتلاحق القهقهات في القاعة، تذكر كلمات بذيئة لا غنيات غدت شهيرة وتتواصل القهقهات، وكأن هذا الجيل كان بالفعل يقهقه على نفسه.

وفجأة نهض شاب كان على هيئة شباب الغرب من ناحية حلق شعره وترك شعرات على ذقنه، وارتداء تيابه وقال: لكن يادكتور لا تقسوعلى هذا الجيل كثيرا، ليس أمامه إلا أن ينهج منهجين، أولهما منهج الانفتاح على حضارة الغرب، وثانيهما العودة إلى الفكر السلفي والدخول في إحدى التنظيمات التي شاع تسميتها.

بالنسبة لي يادكتور فإن هذه الأسماء التي تسخر منها وهذه الكلمات التي تستشهد بها وأنا مثلك أسخر منها، وأدرك تماما بأننا نعجز أن نقدم أسماء كأم كلثوم، أو طه حسين، أو يوسف وهبي، أو حتى سعد زغلول أو عبد الناصر، ولكن بذات الوقت فإنني أفضّل الانتماء إلى هذه الأسماء وهذه الأغنيات البذيئة على الانتماء إلى إحدى الشبكات التي نعرفها جميعا والتي نعرف إلى أين ستودي بنا.

عندما أنظر إلى قناة فضائية تجعلني أهز مؤخرتي لهو خير لي من أن أنظر إلى قناة تجعلني أطلق لحيتي وأتخلى عن كل علاقة لي بالحياة.

عندها استرسلت بالشرح المستفيض حتى بعد أن انتهى وقت المحاضرة وأقنعت ذاك الشاب بأنه لن يستطيع أن ينسجم مع تركيبة مجتمعه وسوف يبقى يشعر بغربة عن هذه البنية مهما بدا له عكس ذلك، وهذا يؤدي به إلى شكل من أشكال الفصام.

قلت بأنك لا ترفض الغرب كله، ولكن ترفض أن يهيمن على كل شيء فيك ولا ترى حولك شيئا غيره، وكذلك ترفض أن تطلق لحاك وتنسى الحياة.

ولا أخفي عليك بأن ذلك كان له بالغ الأثر نحو تغيير العديد من الأفكار التي كانت تدور في رأسي مع الكثيرين من الزملاء والزميلات، وكان من أكثر حديثك أثرا علينا هو قولك بأن الشاب هنا يغرق في تقليد الشاب الغربي ناسيا الفارق الحضاري الهائل بين الحضارتين، ثم أنه لا يشعر بأنه يمارس سلوكا اجتماعيا مألوفا في مجتمعه، بل يقلد سلوك مجتمع آخر.

وعندما قرأت صدفة في إحدى الصحف خبر تكريمك بمناسبة كتابك النقدي الجديد الذي أعده البعض إضافة حقيقية إلى حركة النقد في بلادنا – وقد اعتدت أن أحصل عليها كلما سنحت لي فرصة لا نني أحيانا أ قع على مقالات لك، أو مقالات تُكتب عنك، أو على خبر لمحاضرة لك في إحدى المراكز الثقافية – قررت أن أحضر هذا التكريم مهما كلفني ذلك من ثمن، وقلت لا هلي بأنني لا بد أن أذهب إلى وزارة التربية من أجل استكمال بعض الأوراق اللازمة لتثبيتي في التعليم.

أنظر يا سيدي إلى نعمة الهاتف الكبرى، لولاها ما الذي كان بمقدورنا أن نفعل، كنا سنكتب الرسائل كاليتامى، الرسائل التي يقرأها الآخرون والتي قد تصل أو لا تصل.

عندما أجلس وأكتب إليك رسالة أشعر بحجم ذاك البعد المرعب بينك وبيني، لا نني أكتب إليك دون أن أعرف أين أنت، أما الآن فأحدثك صوتا لصوت ونبرة لنبرة، أشعر بأنني في حضنك، أشعر بأننا معا ونتهامس في سكون ليل لا ينتهي إلى الأبد.

* * *

هاهي صفحات الكتابة تشرق أمام قلمه كأنه لم يكتب حرفا واحدا من قبل، يكتب ولا تنتهي العبارات، تزداد التعابير سعة، يكتب وكأنه لا يريد أن ينهض من طاولة الكتابة، يكتشف لا ول مرة بأن روهات هي التي تدفعه إلى كل هذا الإبداع، وكلما يكتب فصلا يتصل بها ويقرأه لها فتقول ملاحظاتها التي تغني الفصل وتجعله يضيف إليه أفكارا جديدة.

– كنتُ أقول لك يادكتور بأننا عندما نتحدث أشعر بأنني معك، ولم أقل: أشعر بأنك معي.

إنها ملاحظة يمكن لك أن تدرسها في إحدى فصول الكتاب.المرأة هي التي تأتي إلى الرجل، وليس الرجل هو الذي يذهب إليها. الرجل لا يقول لحبيبته: أشعر بأنني الآن معك. لا نه ليس هو الذي يذهب إليها ليكون معها في بيتها، لا نها هي التي تأتي إليه في بيته لتكون معه.

هذه الكلمات التي ترد بيننا بصورة عفوية، إنها بذات الوقت ترد بين كل امرأة ورجل لا نني أمثل بنات جنسي، وأنت تمثل أبناء جنسك.

أريده أن يكون كتابا حافلا وغنيا لا تتركه من يديك قبل أن تغنيه بكل ما يجعله إضافة حقيقية لكتبك السابقة يا حنيف.

يقول: إنك ياسيدتي شريكتي في الكتابة ومن أين كنت سآتي بكل هذه الإضافات الغير موجودة في كل روايات العالم، وأي رواية كان بمقدورها أن تدفعني إلى تناول كل هذه التفاصيل بحميمية دونك.

ولكن سيكون الإهداء لك ياسيدتي وهي المرة الأولى التي أهدي فيها كتابا لا حد.

وللتو بدأ يشعر أنه يكتب بشكل أفضل مقارنة بكل الكتب التي عمل فيها، وأدرك أن الكاتب بمقدوره أن يكتب بشكل مشرق وأعمق وأكثر عذوبة وهو عاشق منه أن يكتب وليس في حياته حالة حب.

تأتي الكتابة كأمواج وهو يكتب مسودات بسرعة تحت الدفق، ثم في اليوم التالي يضعها في جهاز الحاسوب ليأخذ الكتاب الجديد شكله الأولي ويعلن للأصدقاء وللصحافة أنه بصدد كتاب نقدي جديد مميز عن كل كتبه السابقة. وبين ليلة وأخرى تهتف له روهات لتزوده بفكرة جديدة، ثم يقرأ لها المسودات التي يريد أن ينقلها مباشرة إلى الحاسوب، والمسودات التي يتردد في نقلها، وأخرى يراها تحتاج إلى إعادة كتابة على مسودة أخرى.

يستغرق في الكتابة، يسرد أفكارا عن المرأة وأهمية وجودها مع الرجل في العمل والحياة والبيت والسفر والغربة، يكتشف بأن مايكتبه أحيانا يتجاوز النقد ليتحول إلى فصل مستقل من رواية لا نه يتحدث أكثر مما يحلل الشخصيات الروائية التي يتناولها بالتحليل ويرى بأنه يخرج عن الشخصية ليسرد حالة الحب التي يعيشها شخصيا ويتخيل بأنه يسرد مشاعره لروهات.

تخطر له فكرة أن يغامر بكتابة رواية جديدة، أو يعيد كتابة الرواية الأولى التي كتبها بداية عهده بالكتابة، أن يتحول من النقد إلى الرواية ولو لمرة واحدة وأخيرة ويتوب عن ذلك لا ن مايشعر به يدفعه إلى الاستغراق في وصف الحالة التي يعيشها وكأنه يكتب حالة حب وشوق إلى حبيبته الغائبة، حبيبته التي تلخص له كل نساء الكون،

وتلخص له حواء ذاتها، وتجعله يشعر بأنه هو آدم، لكن فكرة مغامرة التحول لا تروق له كثيرا، فهو ناقد ويؤمن بجدوى التخصص وأن التحول سوف يأتي على حساب التخصص، فلن يكون بوسعه أن يكون روائيا بارعا، إضافة إلى أن ذلك سوف يأتي على حساب مكانته في العمل النقدي وعلى الوقت الذي يهبه لهذا الاختصاص.

وهو الذي دوما يقول بأن غالبية النقاد الذين تحولوا إلى كتابة الرواية، كانوا روائيين فاشلين إضافة إلى أنهم تشتتوا بين النقد والرواية، لا نهم كانوا يكتبون بقلم الناقد أكثر مما يكتبون بقلم الروائي فكانت رواياتهم شبيهة بدراسات نقدية أكاديمية محكومة مسبقا بمعايير النقد، إضافة أنه كان يشعر وهو يقرأها بأنها كُتبت للنقاد وللمناهج الجامعية أكثر رمما كُتبت لعامة فئات القراء.

كانت تفتقر إلى الفضاءات الروائية المفتوحة، تفتقر إلى دفء النسيج الروائي والألفة الروائية، إلى خصوبة مساحات الخيال الشاسعة، إلى رقة وعذوبة الدفق الشعري، إلى قوة ملاحظة الروائي في التقاط أدق التفاصيل التي تتفاعل مع نسيج روايته التي يعيشها ويكتبها ويتنفسها معا. إضافة إلى ذلك فإن القارئ عندما يقرأ هذه الرواية فإن اسم الناقد لا يبرح مخيلته وطوال القراءة يشعر بأنه يقرأ رواية لناقد

وليس لروائي وهذا له شأن آخر في مسألة التذوق ومسألة التلقي والتفاعل مع ذهنية القارئ.
كان يشعر بأنه في حضرة أستاذ جامعي موقر وناقد أدبي رصين في قاعة محاضرات محكمة أكثر مما يشعر بأنه في بستان منزل روائي مفتوح لا ستقبال كل عناصر الطبيعة. روائي مفتوح الأفق، واسع الخيال، غني التعابير، مغامر في تقنياته الفنية.

كانت قد خطرت له فكرة أن يتناول ظاهرة النقاد الذين تحولوا إلى روائيين في كتاب جديد له، وكانت تلح عليه الفكرة مع أفكار أخرى تسعى لتأخذ الأولوية في الكتابة، لكن شمس روهات التي سطعت فجأة في ليل غربته استطاعت أن تقلّب موازين كل شيء رأسا على عقب، وهو لا يريد أن تذهب كل هذه المشاعر التي يعيشها لا ول مرة في حياته هباءً، وحتى لو لم يتم قرانه بها، فكي تبقى هذه الصفحات شاهدة على أكثر مراحل حياته إشراقا روحيا وإقبالا على الحياة وعلى اكتشاف جمالياتها ولحظاتها السحرية من خلال المرأة.

كان في الماضي يعود إلى البيت ولا ينظر في جهاز الكاشف لا نه كعادته لا يحمل أي رقم جديد، كان يظن بأن المرأة التي يبحث عنها غير موجودة في هذا العصر وأنه مثل عبد الحليم سيكتشف بعد رحلة العمر بأنه كان يطارد / خيط دخان /، وأن

حبيبة قلبه / ليس لها أرض أو وطن أو عنوان /. ويتمتم في نفسه: رحل حليم دون أن يجد المرأة التي ترتقي ليقترن اسمها باسمه، تلك الأغاني العاطفية الملتهبة لم تكن غير نداءات ساخنة إليها حتى تأتي بيد أنها لم تأت.

كان يمضي في البيت ساعات طويلة ولا يصدر للهاتف رنين، يفتح الأنترنيت، يمضي ساعة، يفتح بريده الإلكتروني دون أن تصله رسالة تجعله يشعر بشيء من الحميمية أو تيقظ لحظة واحدة عواطفه النائمة. ولا ن جاءت روهات لتملأ بريده الإلكتروني برسائلها وموسيقاها وصورها الجديدة والمواقع التي تهديها إليه، تملأ هاتفه النقال بالرنين، لقد أعادت إليه الحياة وإلى سكونه تلك الموسيقى البالغة العذوبة على سمعه، إنه رقمها الذي يبقى دائم التألق على الشاشة ولا تدع أي رقم آخر يلبث عليه دونها نصف ساعة.

وعندها يخفق قلبه مع الرنين ويلتفت حوله في البيت كأنه مليء بعيون مجهولة، ثم يطبع قبلة دافئة على الرقم، إنها تملأ وقته مساء بحديثها العذب في الهاتف المنزلي، وبين حين وحين ترسل له بالبولمان رواية جديدة اقتنتها، ترفق له ملفا بالبريد الإلكتروني يحتوي على رواية جديدة قرأتها في إحدى مواقع الأنترنت.

كان يداهمه شعور عميق بالفراغ بعد منتصف الليل فينتفض من الفراش ويراوده إحساس غريب بأنه فقد إدراكه بالمكان وأنه في موضع لا يعرف شيئا عنه، لكن

روهات استطاعت بكل حضورها الطاغي أن تزيل كل تلك الأعراض المرعبة. عندما يتجه إلى الكلية ينتابه شعورالإامتلاء بالحياة وأن ثمة امرأة رائعة تمضي معه لكن دون أن يراها أحد غيره وإنه يتبادل معها الحديث بينه وبين نفسه دون أن يسمعهما أحد، وعندما تقع عيناه على فتاة جميلة مايلبث أن يهتف له قلبه: لكن روهات أجمل.

يمشي في أروقة الكلية ونور الحب يشع منه، من حديثه وخطواته، وثيابه، ووجهه، لا تكاد بسمة إشراق الحب تفارق شفتيه، وعندما يكون ماشيا يدندن بأغنية، ولا يخفي عن أصدقائه بأنه يعيش أول حالة حب في حياته، كانت ثمة نساء عابرات يطرقن باب قلبه لكنه أمام الباب وقبل أن يفتحه كان يعتذر، لم تستطع امرأة أن تمد خطوة واحدة إلى باب قلبه، كن يقفن ويطرقن لساعات، لا يام، لشهور، لكن الباب يلبث موصدا دونهن، حتى النساء القليلات اللواتي دخلن حياته بحميمية مالبثت أن خفتت شرارة تلك الحميمية نحوهن، ولم يشعر بقوة أنه خسر امرأة لا يمكن تعويضها، كان دوما يعزي نفسه بأن المرأة الكبرى التي لا يمكن تعويضها سوف تأتي.

* * *

منذ يومين جمعته سهرة بصديقه مدثر الذي لم يتردد من إنذاره بضرورة الابتعاد عن أسر المرأة.

قال: أنت مثالي للحرية ياصديقي وأنت عزائي الوحيد في هذا العالم، فلاتقع في أسر المرأة، سوف تندم على كل لحظة أمضيتها خارج ذاك الأسر.

قال وإشراق الحب يملأ وجهه: ياصديقي سوف أندم على كل لحظة أسر عشته دونها، إنها هي التي سوف تحررني من عالم كله أسر. كل هذه الأضواء التي تراها مسلطة علي لم تكن تشكل شيئا بالنسبة لخيط واحد من خيوط نور الحب التي بددت كل ذاك الظلام الذي كان مهيمنا على روحي. المشكلة ياصديقي أنك تخلط بين المرأة وبين المحبة. أنت لديك امرأة ولكنك لا تحبها، بينما أنا ليست لدي امرأة ولكنني أحبها من بعيد، لقد سبقتها زهور حبها لتتفتح في حديقة قلبي.

عندما لا تسبق المرأة زهور حبها إلى حديقة قلب الرجل، فإن تلك الورود مهما بدت أمامه بحضورها أمامه فإنها لا تكون في نظره أكثر من أشواك على شكل زهور.

كل نساء العالم بالنسبة لك تحولن إلى ميس، لنفرض يا أخي أن ميس تعاني من عقدة مزمنة لا سباب ما، هل نساء العالم كلهن سيصبحن مريضات من أجلها.
المرأة عندما تحب ياصديقي فإنها تمنح دون حدود كل ما لديها، لا تفكر أن تؤجل شيئا إلى الغد، إنها تعطي كل شيء في لحظة حب واحدة وتتحول في حضن من تحب إلى طفلة لا يهمها شيء في العالم كله غير هذا الكائن الذي تحبه وتتمسك به وهي تتنازل عن كل حقوقها الأخرى في الحياة من أجله، بينما الرجل حتى وهو في ذروة حميمية علاقته بها لا يمكنه أن يتخلى عن كل شيء من أجلها، إنه دوما يبقى يفكر بعقله في وقت تكون هي في حالة غيبوبة تامة عن ذاك العقل.
قال مدثر وهو يحدق في وجهه مليا: هل تنسى يادكتور غدر النساء، هل نسيت أن شجرة الدر قتلت زوجها رغم كل جميله معها، وهل نسيت الكاهنة سجاح بنت الحارث بن سويد التي تسببت في سفك الدماء وتحالفت على الإسلام في حروب الردة، وادعت النبوة، وتزوجت مسيلمة الكذاب، والخيزران التي خنقت فلذة كبدها حتى تبعده عن شؤونها في الحكم.
واسمع وصية هذه الأم التي توصي ابنتها في ليلة عرسها لتقطع رأس قطة وتختبره قائلة: اقلعي زج رمحه، فإن أقر فاقلعي سنانه. فإن أقر فاكسري العظام بسيفه، فإن أقر فاقطعي اللحم على ترسه، فإن أقر فضعي الإكفاف على ظهره، فإنما هو حمار.
ولذلك عاقب الله المرأة بعشر خصال: بشدة النفاس وبالحيض، وبالنجاسة في

بطنها وفرجها، وجعل ميراث امرأتين ميراث رجل واحد، وشهادة امرأتين شهادة رجل واحد، وجعلها ناقصة العقل والدين لا تصلي أيام حيضها، ولا يُسلم على النساء، وليس عليهن جمعة ولا جماعة، ولا يكون فيهن نبي، ولا تسافر إلا بولي.

منذ يومين التقيت بأحد معارفي القدامى من الحي الذي ولدتُ فيه، كان شاحبا وكأنه يحمل جبلا على ظهره.

قال لي هذا الصديق القديم بأنه تزوج منذ ثلاث سنوات ولكن منذ ذلك اليوم لم ير الراحة في بيته، قال بأنه أحيانا يتخيل نفسه ضحية واهنة تحت فكي وحش مفترس ينهشه، فينهض بعد منتصف الليل من فراشها إلى أي باب هربا من ذاك الشعور.

كنت أصغي إليه بدهشة وهو يقول بفزع: يا أخي لا تصدق أنها تراني في البيت حتى تستبد بي وتثيرني، ثم تطرحني أرضا وتنهشني، ومادمتُ في البيت فإنها كل ساعة تأتي لتعيد الكرة مرة أخرى، في الأيام الأولى من الزواج قلت ربما أنها مندفعة بعض الشيء ولكن الشهور القادمة ستشعرها تهدأ وتريحني، ولكن مضت ثلاث سنوات لم يسبق لي أن نمت فيها قبل الثانية بعد منتصف الليل، لقد ضجرت العشرة الزوجية، وضجرت كل امرأة أنظر إليها مهما كانت جميلة، لا ن هذه المرأة قتلت كل نساء العالم في مخيلتي.

تصور حتى وهي في الدورة لا تكف عني، حتى في الأعياد فإنني أتوسل إليها لتذهب لزيارة أهلها لكنها تأبى إلا أن نذهب معا ونعود قبل أن يهبط الظلام.

الأمر بدا مقرفا يامدثر حتى عندما أقول لها: لندع هذا الليلة.
فتقول بعصبية: أين تريدني أن أذهب، وهل لي زوج وحبيب غيرك، وإن لم تكن راغبا فأنا راغبة وهذا حقي فيك.
هذه المرأة تحولت إلى شبح في بيتي، غدوت أمقت دخول البيت يارجل، ولم يسبق لي أن شعرت بأي متعة للجماع معها لا نها لا تمنحني فرصة أن أرغب بها ولو لحظة واحدة، أحيانا توقظني في الرابعة صباحا وتثيرني ولا تدعني حتى أنهض لا شرب جرعة ماء، تصور أحيانا أكاد أفقد الوعي، ولكنها لا تكف عني إلا بعد أن تنال ما تبتغيه.
ذات مرة عاتبتني أمها وقالت بأنني بمثابة ابنها حتى تتدخل في مثل هذه الأسرار، ولكن زوجتي تشكو أن بي برود جنسي وعلي أن أرى طبيبا ليعالجني.
رغم أن لا أولاد لي منها ياصديقي فإن أهلي جميعهم يرفضون فكرة الطلاق، هذه هي مصيبتي الكبرى يامدثر منذ أن تزوجت هذه البومة التي أظلمت علي حياتي.

ثم ضحك قليلا وأضاف: سأقول لك نكتة وقعت معي، ذات مساء كنت مستلقيا في البيت وجاءت، فأردت أن أفعل أي شيء حتى أبتعد عنها، ولا أعرف كيف رأيتني في الشارع، عندذاك شعرت بأنني خرجت من هاوية، وبعد قليل رأيت الناس

ينظرون إلي ويبتسمون، فانتبهت بأنني دون حذاء، ولم يكن أمامي وحتى لا أعود إلى البيت غير أن أتجه إلى محل لشراء جراب وحذاء جديد.

قلت له: ألم تعرض هذا الأمر على طبيب نفسي لعلها تعاني مرضا ما ؟

قال: والله ياصديقي لذتُ بطبيبين، ولكنهما قالا لي بأن ذلك ليس مرضا، وما علي غير أن أسعى وأنجح في إقناعها بأن الإنسان أحيانا يشعر برغبات ولكن عليه أن ينجح في أن يقمع نفسه إذا رآها تسبب إزعاجا لشخص آخر، المسألة كما فهمت منهما بأنها ترغب في ذلك وتلبي هذه الرغبة من خلال التحرش المستمر بي، ولكنها تستطيع أن تخفف من هذه الرغبة أو تؤجلها إن اقتنعت بفكرة التأجيل أولا ومن ثم سيكون بإمكانها أن تقنع نفسها وسوف يصبح الأمر طبيعيا مع الأيام: بيد أنك لا تنجح في إقناعها بفكرة القمع هذه حتى يكون بمقدورها أن تقنع نفسها.

وعندما عرضت عليهما أن يتدخلا ويساعداني في هذا الأمر، امتنعا عن ذلك وقالا بأنهما لا يضمنان النتيجة لا نني أنا الوحيد الذي يمكنني النجاح في هذه المهمة في أوقات متفاوتة من لحظات مزاجها ووضعها النفسي.

أليست كل هذه وقائع أضعها أمامك يا حنيف، يوم تعرفت بميس أدركتُ بأنني سوف أكون تعيسا معها وكنت أقنع نفسي خلاف ذلك فمضيتُ بروح رياضية خالصة ولا تقليدية في تلك الطريق الخاطئة التي لا أريدك أن تسلكها.

مهما حاولنا ياصديقي فإن الرجل لا بد أن يتطبع بشيء من طباع زوجته حتى لو كان يمقتها.

ميس استطاعت أن تغير طباعي وترغم علي أن أكون نقيض ماكنت بدون أي رغبة مني، تصور ياعزيزي وأنا الذي يؤمن بحضارية العلاقة بين الرجل وزوجته أمد يدي إلى ميس وأضربها، بل أشبعها ضربا، تصور وهي تقول لي بأنها لا تشعر بقوة رجولتي وأنها متزوجة من رجل وساندة ظهرها إلى رجل إلا وأنا أقع عليها ضربا وعندذاك تريحني شهرا بكلامها المعسول وطاعتها العمياء ورقة طباعها وكأنها ليست ميس ماقبل الضرب. ثم بعد شهر تعود إلى ماكانت عليه من عناد وعصيان وتشيح بوجهها عني عندما أحدثها، فأضطر إلى تجديد الضرب وأنا كلي ألم وثقة بأنني أرتكب خطأ فادحا بعملي هذا.

قال: يبدو بأنك مصر بأنه لا توجد غير امرأة واحدة في العالم يامدثر هي ميس، تذكر ياصديقي مهجة.

مهجة حالة استثنائية بين النساء حظي بها مناف

: الاستثناء يتكرر كذلك، روها ت تثير في نفسي لا ول مرة الأمل والحب وتنشر في روحي موجة الحلم اللامتناهية.

وفي لحظة عادت رويدا إلى خياله، رويدا بكل بؤسها وشقائها وأمراضها وحبها الشديد أيضا.

ذات يوم بينما كان جالسا في البيت نحو الغروب طرقت عليه الباب لا ول مرة وهي تعرفه بنفسها وترجوه أن يمنحها ولو نصف ساعة من وقته. قالت أنها تمر بأزمة نفسية حادة وتطلب مساعدته من ناحية إنسانية وهي إحدى قارئاته ومعجبة بطريقة تحليله للنصوص السردية.

امرأة شقراء ذات عينين عسليتين ووجه دائري ممتلئ تبدو متأنقة في ثيابها وحديثها، تفوح منها رائحة خفيفة لعطر يبد وأنها انتقته بعناية فائقة. لم يتردد من دعوتها للدخول وعندها بدأت تشرح له بأنها لا تستطيع أن تتخلص من شعورها العميق بأنها امرأة منبوذة غير مرغوب بها من قبل الرجال: يادكتور بات حلما لي أن ينظر إلي رجل نظرة إعجاب واحدة ويقول لي كلمة طيبة حتى لو كان يكذب.

وتحدثت له كيف أن أمها منذ عشر سنوات عندما مات أبوها أوقفت عقارب الساعة وأبقت صفحة المفكرة على ذات اليوم دون أن تنزعها، ولبثت في حداد دائم عليه حتى هذا اليوم، حتى أنها تمنعها وتمنع أختها الوحيدة سارة من جلب ساعة أو مفكرة إلى البيت، حتى ساعة اليد فإنهما تخفيانها عن أمهما تجنبا لتسبب أي تجريح لها. لقد حافظت على حبها الوحيد، وحافظت على ابنتيها الوحيدتين من هذا الحب، وهي منذ ذلك اليوم ليس لها غير أمها وغير أختها سارة التي تصغرها بخمس سنوات وماتزال مثلها عازبة.

وشرحت له كيف أن أمها أيقنت بأن الحياة انتهت بموت زوجها ومنعت عن نفسها كل مظهر من مظاهر الفرح، وتمنع دخول ضيافات العيد إلى البيت، ومن يومها لم تقل حتى لا حدى بناتها في العيد: كل عام وأنت بخير.

وعندما تسمع هذه العبارة من أحد يقولها بحسن نية، فإن وجهها يتغير كما لو أنه لن يعود ثانية إلى حالته الطبيعية.

أردفت والدموع تملأ عينيها وهو ينصت بهدوء تام وينظر إليها دون أن يركز عينيه في وجهها: أشعر بفراغ هائل يؤدي بي إلى الرغبة العميقة للانتحار تخلصا من هذا الشعور العميق بأنني كائنة منبوذة في قاع هذا المجتمع، لقد بلغتُ الأربعين ولستُ امرأة دميمة، أو سيئة الخلق، وأنتمي إلى عائلة لا بأس بها من حيث المكانة الاجتماعية، وحتى الآن فشلتْ كل محاولاتي بالزواج وفتح بيت وإنجاب أطفال فإلى متى أنتظر، أظن أن اليأس بدأ ينتشر في كل مشاعري.

يومها قال وهو يحاول أن يخفف عنها بأنه أيضا في الأربعين ولا يعاني مثل هذا الفراغ لا ن العمل يمكن له أن يحتل جانبا هاما من وجود أي فراغ يمكن له أن يستبد، وأن المشكلة أنها تعقد كل آمال الحياة على الزواج الذي قد يأتي ويقضي على كل ذرة حياة تعيشها، يمكن لها أن تقوم بأعمال كثيرة بدون أن تفكر بالرجل الذي عادة ما يأتي دون بحث، وفي محض صدفة.

الزواج هو جزء من الحياة وليس الحياة كلها، يمكن لها أن تعيش الحياة دون زواج ولكن لا يمكن لها أن تعيش الزواج دون حياة. بعد ساعة نهضت رويدا وقد أشرق وجهها وهي تشكره كثيرا لا نه خفف عنها مشاعر اليأس.

ثم عادت إليه بعد أسبوع حاملة قلما ومزهرية لا نها قبضت راتبها ورأت أن تكافئه بهذه الهدية المتواضعة راجية أن يقبلها وأن يمنحها ساعة أخرى من وقته، شكرها على الهدية وهو يتناولها وأبدى استعداده لا ستقبالها في أي وقت تراه وبدأت الزيارات تتالى حتى استقرت على أن تكون كل أمسية سبت من الأسبوع فبدأ يطلق عليها مازحا: زائرة السبت.

بعد أسابيع معدودة تحولت تلك العلاقة مع الزيارات المتكررة إلى ذاك النوع / الشديد الخصوصية / من العلاقات، أحيانا تستأذن أهلها بحجة أنها سوف تقضي يوما عند إحدى صديقاتها في العمل فتنام الليل عنده وفي الصباح تنطلق من بيته إلى عملها، وقد اعتادت أن تقوم بتعزيل البيت كل أسبوعين حيث تقضي نهار الجمعة كله وهي تعمل في التعزيل وتعيد ترتيب أثاث البيت، تطبخ له طبخات مرهقة كالمحشي، والفاصولياء، والبامية، والسبانغ، والملوخية. وأحيانا تجلب له من مونة البيت مثل: المكدوس، والجبن، والزيتون، والمحمرة، ومربى القرع قائلة: هذا بيتي يا حنيف، لا دخل لك بما أجلبه، فأنا أعمل من أجل هذا البيت الذي ليس لي غيره، ومن أجل هذا الرجل الذي لا أحد لي في العالم سواه.

عندما أخسر هذا البيت فإن كل بيوت العالم لا تعوضني عنه، وعندما أخسر هذا الرجل فإن كل رجال العالم لا يعوضونني عنه. كان يقول لها: مهلا ياحبيبتي، لا تنفعلي، لا ن هذا يسبب لك إرهاقا ويمكن أن يعيدك إلى ماكنتِ عليه من كآبة.

تقول: حتى السعادة يمكنها أن تعيدني إلى كل تلك الكآبة.

يقول: الانفعال هو انفعال سواء دافعه في السعادة، أو كان دافعه الشقاء.

قولي بأنك تحبينني وأنت تحافظين على هدوء نفسك، وحتى في الجنس يمكن أن تخففي قليلا من مشاعر الإثارة التي تعتريك، أن يكون الأمر هادئا وطبيعيا لا ن العالم لن ينتهي في ليلة واحدة ولا في رعشة واحدة. تبدين أمامي أحيانا بأنك تريدين أخذ كل شيء في ساعة واحدة وكأن لا ساعة بعدها، وعندما تتحدثين أشعر بأنك تقولين كل شيء دفعة واحدة دون أن تتركي شيئا للغد.

أريد أن تتحكمي بهدوء نفسك من أجل المستقبل الذي لا نعرف ما يخفيه لنا، وعلينا أن نكون أقوياء في مواجهة كل الاحتمالات الممكنة وغير الممكنة.

يومها جمدت وهي تحدجه بنظرة استغراب وكأنها تراه لا ول مرة، ولكنها تداركت الموقف قائلة له: يمكن لي أن أتصور أي شيء في الحياة، ولا أتصور بأنك ستتخلى عني ذات يوم، وأعاهدك بأن حياتي التي ابتدأت معك فإنها إما أن تستمر معك، أو تنتهي بدونك، لا ول مرة أشعر بأنني سيدة متزوجة أدب خطواتي بثقة وأنا أمشي، لم

يعد أي رجل يثير اهتمامي لا ن لا رجل يخصني في العالم غيرك. أنت الأب وأنت الأخ وأنت الزوج وأنت الجبل الذي يسندني، إنني أستمد قوتي وحيويتي على قدر شعوري بأنني زوجتك، ويخيم الموت كل الموت في أي مشاعر أخرى.

ولم يتردد من أخذها معه في سيارته إلى الساحل لقضاء أسبوع إجازة في إحدى الشاليهات، كان كل من يراهما لا يصدق للحظة واحدة بأنهما غير زوجين، كان أحيانا يحملها على كفيه بمحاذاة الشاطئ، ويعومان معا، يأكلان معا، ينامان معا، يغوصان في الماء معا.

ولكنه بعد سنة اكتشف بأنه بات يؤذي رويدا أكثر مما ينقذها من محنتها، فقد تعلقت به وباتت تعلق عليه آمال الزواج، وهو لا يشعر بأي ميل لتلك الرابطة لا ن ثقته بها مهزوزة كشريكة حياة إضافة إلى أنه لم يكن يحبها الحب الذي يمكن أن يقوده إلى مد يده إلى يدها لتكون أما لا ولا ده.

استوطنه شعور مؤلم بأنها أوقعته في شرك جسدها وعليه أن يستيقظ على هذا الواقع ويرحم نفسه ويرحمها، حتى أنه ذات مرة بينما كان منسجما في كتابة فصل من فصول إحدى كتبه هتفت له على الهاتف الأرضي ولم يكن راغبا الخروج من حالة الكتابة ولبثت تكرر المحاولات نحو ساعة دون أن يرفع السماعة، فاتصلت بالهاتف الخليوي، ولم يرد، وهكذا باتت تكرر الاتصالات المتلاحقة لمدة ساعتين دون أن يرد حتى أحس أنها باتت عبئا ثقيلا عليه، وفجأة سمع رنين الباب.

نهض ليراها تقف شاحبة ومرتبكة وقد بلغت الساعة الواحدة ليلا، ولمح بجانبها فتاة خمّن بأنها أختها سارة للشبه الذي بينهما. قالت: لم أكن بحاجة إلا إلى كلمة واحدة تقول لي فيها أنك بخير لتطمئنني عليك. أنت تعرف بأنني لا أستطيع النوم قبل أن أسمع صوتك، هل استكثرت علي تلك الكلمة يا حنيف، شكرا لك. قالت هذه العبارة وانصرفت مع أختها التي لبثت صامتة وهي تنظر إليه.

وعندها اتخذ الموقف الحاسم لا ن الأمر بات أكبر مما كان يتصور، فما سيكون موقفها إذا تعرّف بامرأة وتزوج، إنها تشبه القيد الذي يلتف حوله ويمنعه من الحراك، وهو وإن كان أنانيا بعض الشيء ليحافظ على علاقته الجسدية بها فلن يستمر في ذاك النهج وعليه أن يقمع رغبته لعلها تعثر على رجل تتزوجه وينتهي كل شيء كأنه لم يكن.

لقد اتخذ الموقف الصارم واستمر في عدم الرد عليها والتهرب من مواعيدها السابقة وعندما تتصل به في الهاتف لا يرد ويكتفي برفع السماعة ووضع أغنية / أسألك الرحيلا / لعلها تعي ولا تحرجه ليقول لها مباشرة بأن عليهما أن يفترقا، لكنها عكس ذلك أخذت تتوسل إليه ليرفع السماعة ويتحدث معها ولو كلمة واحدة.

وفي ذروة يأسها تدفع أختها إلى بيته للتوسل إليه أن يرد عليها ولو بكلمة واحدة، وأحيانا تدفع أختها للتصل به من إحدى الهواتف المجاورة حتى يرفع السماعة

فتقول بأن أختها تمر في ظروف بالغة القسوة ولا تريد منه غير أن يتحدث معها ولو بكلمة واحدة.
كان يعتبر أن تلك الكلمة هي بداية لعودة إلى كل ذاك الذي يريد الخروج منه بأي وسيلة.

فباتت تطرق الباب ساعات وساعات وأحيانا تبقى بالقرب من الباب حتى الصباح ليخرج ويراها واقفة بانتظار خروجه، فيهملها ويكمل مسيره نحو العمل، يكمل مسيره وهي تركض خلفه وتلاحقه دون أن يلتفت إليها، حتى باتت تشكل له مصدر إزعاج حقيقي وتوصل بها الأمر أن باتت تلاحقه إلى الكلية مرتدية ثيابا رثة شاحبة وتتحدث دون تركيز مع الآخرين واقفة جوار سيارته قائلة بأنها سيارة زوجها وأنها بانتظار أن يأتي ويأخذها إلى البيت.
ولبث في قسوة قلبه وإهماله لها وهو ينكر أي سبق معرفة بها قائلا بأنها امرأة تهلوس.
وكان يعود إلى البيت يبكي بعمق حزنا عليها، عاجزا عن فعل شيء، وعندما يخطر له أن يستجيب لنداءاتها، يدرك بأنه سوف يقضي على مستقبلها لا نه واثق بأنه سوف يكون منافقا ويكذب عليها حتى يظفر بمتعة آنية، وعندما تظهر المرأة التي يخفق قلبه لها، سيقول: وداعا.

عندها قد لا تحتمل الصدمة لا ن العلاقة تكون قد تعمقت، بيد أنها يمكن أن تنسى الآن مع مرور الوقت وتعود إلى حياتها الطبيعية. بيد أنها لم تفقد الأمل ولبثت تلاحقه حتى يرأف بها ويدرك أنها لا يمكن أن تتخلى عنه مهما كان قاسيا، ولديها أمل بأنه سوف يعود إليها، لا نه يمر بظروف، أو لعل بدر منها شيء يضايقه، لكن الأيام ستكشف له مدى حبها، ومدى تعلقها به.

أجل لا بد أن يعود إليها، وهل بمقدورها أن تنسى كل تلك الذكريات الحميمة معه، هل بمقدورها أن تتخلى عن حلم الحياة الوحيد الذي كان يتحول إلى حقيقة وهي في حضنه.

في النهاية لجأت إلى أحد جواره شارحة له خصوصية العلاقة التي جمعت بينهما وطلبت منه أن يساعدها حتى يتزوجا، وعندما رآها الجار بتلك الوضعية المريبة لم يكن أمامه إلا أن يصرفها بمعروف معتذرا عن استطاعته لفعل شيء لها، لكنه جاء إلى جاره وأبلغه بما حدث فقال: كما رأيت ياجار، بالفعل أصبحتْ مصدر إزعاج لي، لنفرض أنني كنت على علاقة بها، وفجأة اكتشفت بأننا لا يمكن أن نستمر حتى نكون زوجين، أليس من حقي أن أنبهها إلى مشاعري، واتخذ ما أراه مناسبا لي ولها.

وعندها لم يتردد من أن يبيع بيته ويشتري بيتا في / ركن الدين / ويبدل رقم هاتفه الأرضي والخليوي، ويذهب إلى الكلية بواسطة سيارة أحد زملائه حتى لا تراه داخلا أو خارجا.

كان يلمحها لدى دخوله وخروجه وقد سقط عنها نصف وزنها، ترتدي ثيابا سوداء رثة وتغطي شعرها بإشرب أسود وهي تبحث بعينيها في كل اتجاه بحثا عنه.

بعد ستة شهور من ذاك الهروب وصلته رسالة منها عبر بريد الكلية ويبدو أنها كانت وسيلتها الأخيرة لمخاطبته، فض الظرف ليقع على كلمات موجزة كتبت بخط يُقرأ بالكاد: لا داعي لا ن تواري نفسك عني ياسيدي، لن أسبّب لك أي إزعاج بعد الآن.

وضع الظرف في جيبه وانتابته حالة من الإرباك لم يعرف معها ما يفعل غير أن يتجه إلى البيت ويسترخي على السرير.

راودته أفكار متناقضة إلى أن غفا، وكانت المرة الأولى التي ينام فيها في السابعة مساء ليمضي في النوم حتى الصباح وهو يحاول ألا يصحو حتى لا يقع فريسة للتصورات.

بعد يومين قرأ في الصحف خبرا بالعثور على امرأة غارقة في نهر بردى. وقع الخبر عليه كالصاعقة حتى أنه شعر بدوار وجلس على حافة أقرب رصيف في الشارع المحاذي للمكتبة التي ابتاع منها الجرائد وتصفحها على عجل وهو يهم بالخروج:

هل تكون رويدا يا حنيف، هل نفذت في النهاية تلك الرغبة التي كانت تجتاحها قبل أن تتعرف عليها ؟! استجمع قواه ولا يدري لماذا راح صوب بيتها يستفسر من بعيد عن أخبارها، فقيل له بأنها هي المرأة التي وجدوها غارقة في النهر.

زاد ذلك في ألمه وشعر بأنه أسهم في تلك النهاية، وأنها انتحرت نتيجة إهماله لها وكانت خلال تلك السنة مشرقة تتحدث عن حبها وتعلقها بالحياة، كانت دوما تشتري الثياب الجديدة وتتعطر، حتى أنها اشترت هاتفا نقالا رغم دخلها المتواضع من وظيفتها في وزارة المالية وقالت بأنها اشترته خصيصا من أجل أن تتحدث معه عندما يكون خارج البيت.

أجل إنه هو المسؤول عن كل ذلك وكان بإمكانه أن يمد يده لينقذها من الغرق ويجعلها شريكة لحياته.

كل امرأة يمكن لها أن تسلم نفسها لرجل أحبته كل الحب، أليس هو الذي عرض عليها ذلك وهل سبق لها أن طلبت منه مالا أو مقابلا عن تلك العلاقة الأثيمة، كان ذلك كله بدافع الحب، الحب فحسب. كانت تريد أن تحافظ عليه بأي وسيلة حتى لو خسرت العالم كله، وكانت قبلاتها الملهوفة على وجهه وكل أنحاء جسده شاهدة على قوة ذاك الحب، كانت أحيانا تقول: أريد أن آكلك يا حنيف، ولكن هل حقا تحبني ؟! ويهز رأسه علامة بالإيجاب فتقول: تمنيتك أن تبادرني ذات يوم يارجل وتقول: أحبكِ.

ويقنع نفسه بأن حبها لوحده مهما كان عظيما لم يكن يكفي لبناء بيت سعيد، البيوت التي لا تُشاد بلبنات الحب المتبادل تكون عرضة للانهيار أمام أوهن زوبعة.

* * *

ثلاثة شهور مضت على الحادثة أعدها من أسوأ شهور حياته، أحيانا كان ينتفض منتصف الليل ويشعر بأن الجدران تحاصره، فيهرع إلى الخارج فيلاحقه شبحها، تصرخ في أذنيه كلماتها. لقد قالت كلمتها الأخيرة دون أن تعرف بأنها سوف تسبب له ألما سوف يبقى يلازمه مدى الحياة. تشتتت به الأفكار وأحس بإثم لا يعرف كيف يتخلص من جحيمه ولم يتردد من اللجوء إلى حديقة لعله ينظر في الناس ويخف عنه ذاك الحريق.

قعد على كرسي بكآبة العالم، عندذاك تراءى له ذات الطفل وبذات الهيئة التي رآه بها أول مرة. عندما وقعت عيناه على هيئة الطفل تسربت نشوة إلى أعماقه وأحس بأن نظرات هذا الطفل البريء تخمد النيران بداخله نظرة نظرة.

قال: أرجو أن تكون تذكرتني يا حنيف، الآن نحن في ساعة عصر ويمكنك أن تنظر إلي جيدا. نظر إليه حنيف نظرات نافذة متأملة وقبل أن يفه قال الطفل: أنا أنت يا حنيف، أجل أنا أنت.

استبدت به دهشة وقال بتلعثم: أنت أنا، كيف أرجوك فسّر لي. لم يجب الطفل بكلمة ولبث صامتا قبالته وحنيف يتأمله بإمعان وقد غاص جسده بالعرق.

وللتو أحس بمعنى ماقاله الطفل وبدت الكلمات أمامه ترتدي معانيها: أي جاحد أنت يا حنيف، كيف تنسى نفسك، هذا الطفل الذي أمامك هو أنت. وبدأ يقدم اعتذاره الشديد لنفسه من خلال هذا الطفل: ياه يا حنيف كم أنت بحاجة إلى هذا الطفل، كم أنت بحاجة إلى أن تعيشه مرة أخرى، إنه هو الملاذ الوحيد وأنت في كل هذا البؤس.

طفولتك يا حنيف، أنظر إليه، بل أنظر إليك يا حنيف، كم كنت بريئا وعفويا: أجل ياسيدي لقد عرفتك.

فقال الطفل: لقد كنت قاسيا بحق رويدا يا حنيف، كما كانت زهرة قاسية بحقك، ألم تعش مرارة القسوة، كيف تعيدها مع تلك المسكينة التي أعطتك كل شيء دون أن تنتظر منك شيئا، ولكن لا بأس لقد مضى ذلك ولا ينفع الندم عليه.

يمكن أن تعتذر وتضع لها صورة تذكارية في بيتك، وتعاهد نفسك بأنك لو تزوجت سوف تطلق اسمها على أول طفلة لك، هذا سوف يخفف عنها كثيرا، لقد ماتت وهي تحبك كل ذاك الحب الذي بلغ بها ذروة النقاء الروحي، حتى عندما كانت تزورك، لم تكن تشعر لحظة واحدة إلا بأنها زوجتك، كم مرة قالت لك بأن الشرط الأول لزواج أي امرأة ورجل هو موافقتهما، ودون ذلك لا يتحقق أي زواج مهما تحققت وتكاملت الشروط الأخرى، وعندما أحست للحظة بأنها غدت مصدر إزعاج لك انسحبت بهدوء حتى تحافظ على حبها لك. كان عزاؤها أنها ماتت وهي تحبك، ولم تمت وهي لا تحبك. قال هذه العبارة ومضى ليتوارى عن أنظاره مرة أخرى.

وعنئذ فقط أدرك أن بساطة الطفولة بإمكانها أن تحل أعقد وأعظم مشاكل الإنسان، بيد أنه يتجاهلها ويتعالى عليها.

كل المعوقات التي تعكر على الإنسان صفو حياته، وتشتت عليه صفاء ذهنه ولا يجد سبيلا لمعالجتها، يمكن لبراءة الطفولة أن تأتي وتبدد تلك الغيوم الداكنة من

شتات ذهنه، وتبعث بدلا عنها شمسا ربيعية ترفرف أشعتها على أجنحة الرذاذ. عليك يا حنيف أن تدرب نفسك كيف تلوذ بأحضان الطفولة وأنت في ذروة اليأس، إنها الوحيدة القادرة أن تمد يديها فتخرجك من قاع ظلمات نفسك إلى سطوع شمس الحياة.

وما أعانه على التخفيف من حالته قدوم العطلة الصيفية التي حلت عليه في وقتها المناسب الذي بات فيه بأمس الحاجة للابتعاد عن المكان كله. ثلاثة شهور فارغة بدون عمل، سوف يكون فيها بعيدا عن هذا المكان، سوف يكون في بلاد بعيدة ولغات وتركيبات اجتماعية مختلفة يمكن أن تسهم في أن ينسى هذا الجحيم بعض الشيء فاتجه إلى أخيه كاديس في هولندا أول الأمر، وهناك بدأ يشعر بالنسيان شيئا فشيئا، كان يمضي معظم أوقاته في نزهات ورحلات ويتجنب الجلوس وحده في موضع، ثم ذهب مع كاديس إلى أخيهما نبي في بلجيكا، لبث معه كاديس أسبوعا وعاد إلى بيته ليكمل شهرا مع نبي وأولاده والسهر مع الأصدقاء والأقرباء في تلك الغربة، ومن هناك سافر إلى أخته خلات في فرنسا حيث أمضى عندها ماتبقى من العطلة.

في بداية العام الدراسي عاد وقد استطاع أن ينسى حتى تحولت شيئا فشيئا في ذاكرته إلى ذكرى قابلة للنسيان رغم أنه وضع صورة لها في البيت وعاهد نفسه بأنه

سوف يطلق اسمها على أول طفلة ينجبها، حتى الصورة بدت تذكره بشخص عزيز فقط دون أن تثير لديه أي شعور بالألم، إنها تذكره بشيء من الماضي بات يأخذ مظهر القداسة بالنسبة إليه.

عندئذ كتب في دفتر مذكراته:

. تكمن روح الطبيعة في أن أي فعل غير طبيعي تقوم به، يعكس على مكنوناتك ثورة رد فعل غير طبيعي، وعليك أن تحتمل هذه الثورة كما احتملت طبيعتك الطبيعية فعلك اللاطبيعي.

* * *

. إن ثورة اللاطبيعة نائمة لا يقظها غير فعل لا طبيعي تقوم به فتنتفض من نومها العميق وتثور على صفاء طبيعتك الساكنة ولا تعود إلى نومها قبل أن تعود إلى

طبيعتك أو أن تعيدك إلى طبيعتك بالقوة، وإن كنت عنيدا سوف تحيلك إلى كائن لا طبيعي يعيش حياة لا طبيعية وتبقى يقظة لا يدركها نوم، كما أنك تبقى يقظا لا يدركك نوم.

* * *

. الداء لا يتحول إلى دواء، إنه في أفضل أحواله مزيد من الداء، دوما عليك أن تكون دائم البحث عن دواء لدائك، وإن لم تجده فإن صبرك الطويل يتحول مع الزمن إلى دواء.

* * *

. مادامت الشمس تشرق كل يوم فإنها سوف تحمل إليك جديدا لم تكن قد أدركته قط حتى لوكنت في ظلمة كهـف.

* * *

. كل حاضر قابل لا ن يتحول ذات حاضر إلى ماض، ما هو غير قابل لا ن يتحول إلى ماض لم يكن له حاضر ذات حاضر.

* * *

قال مدثر وهو يريد أن يخرج من الموضوع: يبدو بأنك ستكتب رواية بدل النقد وأنت تعيش كل هذه الشاعرية التي لا أريد أن أفسدها عليك.
رغب بقوة أن يخرج من شروده وأن يدع مستقبل حبه لروهات للأيام القادمة دون أن يربط مصير كل هذه العواطف الجياشة بالتكهنات وقال مجيبا على صديقه: آ يا عزيزي، ليتني كتبت رواية، لكن قناعتي بالتخصص تلغي أي فكرة حول البدء في

مثل هذا العمل الرائع، ولو كتبت رواية لما اخترت لها اسما غير اسم هذه المرأة السحرية التي – لا أقول وقعت – بل ارتفعت إلى سماوات حبها.

ما الفرق بين أن تكتب رواية يادكتور وبين أن تكتب عن رواية ؟

الروائي هو الذي يأتي بالشخوص والمكان والزمان والأحداث والتقنيات واللغة الروائية، بينما الناقد يحلل هذا العمل، إنه على شجرة في قلب الربيع ويتأمل ماتقع عليه عيناه وما تشعر به نفسه، لكن الروائي هو الذي كان خلف تشكيل كل ذرة من ذرات كل ذاك الربيع.

لذلك فإنك تتعلم من الرواية أكثر مما تتعلم من النقد، النقد الجيد هو الذي ينجح في شرح وتفسير وتحليل الرواية التي ينظر في شأنها، ينجح في تيسير وصولها إلى ذهنية القارئ العادي، النقاد هم شرّاح الروايات يكشفون مايواريه الروائيون بين السطور، أو مايتوارى دون قصد منهم بين ثنايا السطور.

الروائي له جمهوره العريض أكثر مما للناقد، وله من الغواية والنجومية والسحرية في أوساط القراء أكثر. وربما لذلك ترى البعض من أهل النقد يلجأ إلى الرواية في محاولة منه لسرقة نجومية وأضواء وجمهور الروائي، في حين أنك نادرا ماتجد أن الروائي يتحول إلى ناقد تاركا الرواية:

الشخوص في العمل الروائي كائنات حية تتحرك على الورق، تتألم، تبتسم، تتزاوج، تتعلم، تتطور، تنمو.

كثيرا ما يُسأل الروائي عن شخوصه الذين يأتي بهم ويجعل لهم حضورا في عالم الواقع فيتعلم الناس منهم، من أفعالهم وأعمالهم.

يسدون رؤاهم ومعتقداتهم ثم يفسحون مجالا واسعا للجدال والنقد ؟

وفي الواقع فإنني أتعلم كثيرا من شخوص الروايات التي أتعرف بها ياصديقي.

الناقد يعيش حياتين واحدة مع شخوص الروايات التي يقرأها، والأخرى هي حياته في محيطه ويحاول أن يتعلم من العالمين معا.

أحيانا يدخل الروائي شخصية من عالمه إلى عالم شخوصه ويقوم بعملية التعريف فيما بينهما وأحيانا يحدث العكس وهو يمنح شخوصه الحرية التي يتمتع بها فهم أحرار بمقدار ما هو حر ويعتبر حريته من حريتهم وحريتهم من حريته، وحتى لو خالفتْ ما يؤمن به فإنه يجعل من هذا الخلاف مادة للنقاش والتحاور والحب وليس بالضرورة أن يلتقيا دوما فلابد أن يبتعدا أيضا حتى يرى كل واحد منهما مالايراه الآخر.

ثم نظر إليه وأردف: الكتابة الحقيقية في هذه البقاع ياسيدي هي عملية فدائية بحد ذاتها لا نها محاصرة بالتابوات وقوائم الممنوعات السياسية والاجتماعية، وهنا يقف الكاتب العنيد في مواجهة شبه لذيذة مع خصومه الذين لا تعجبهم كتاباته ويمدون أياديهم إلى مقصاتهم لمجرد وقوعهم على اسمه، إنه يشعر بلذة أنهم لم ينجحوا في

منعه من ممارسة حريته في الكتابة والتفكير، وهي عملية غاية في المتعة والامتلاء ثقة بالنفس، وبذات الوقت تجعل آفاقا أخرى تنفتح أمام قلم الكاتب ليعبر من خلالها بقوة أكثر.

ثم ابتسم بعض الشي وأردف: الكاتب في منطقتنا يمتلك أفقا أرحب للكتابة عن الحرية والاستمتاع بممارستها أكثر من غيره، لا نه هنا يعيش لحظات التمرد والمواجهة والمغامرة في مواجهة الممنوع. لهذا ترى أن إبداعات أبناء المكان المظلم تتمتع بخصوصية بالغة في العالم وترتقي هذه الإبداعات لتحوز بإعجاب العالم برمته من حيث تناول مسألة الحرية الفكرية لا ن كل مبدع يحمل تاريخا من القمع والاضطهاد والكبت والمطاردة، وبدون أن ننسى بأن هذه الأسماء هي سلسلة متواصلة من الإرث الأدبي الحر في جانب من تراث منطقتنا.

قال مدثر: إننا نعاني أزمة الحرية وأزمة الحياة، لذلك تتدفق القوة في التعبير، كالسجين الذي يكتب عن الحرية من داخل السجن بقوة أكثر من ذاك الذي يكتب عنها وهو يعيشها، وأظن بأنه أيضا يعيشها بلذة أقوى في خياله من ذاك الحر الطليق، وهو لذلك ينجح في تصويرها والتعبير عنها.

قال حنيف: هذا جزء من الواقع الذي يستثمره الأدباء في منطقتنا بشكل إيجابي، وهذا مايجعلهم يتميزون بقوة التعبير عن مساحة الألم.الظروف مختلفة هنا بعكس ما يحدث في البقاع، قبل كل شيء ياسيدي على الكاتب أن يمارس سلوك الحرية

في ذاته ويتدرب عليها ولو كان في ظلمة زنزانة حتى يكون بإمكانه أن يمنح الحرية لشخوصه ولا يصادر أفكارها، وفيما بعد يمكن أن يطالب بالحرية الشخصية للكتابة والرأي والمجتمع.

الكاتب المقموع الذي يرضى بالقمع، ويكتب وفق الإشارات الخضراء فحسب، ولا يقتحم الإشارات الحمراء بمجازفة، سيمارس هذا القمع على ذاته أولا ومن ثم على شخوصه وكذلك على عائلته وأصدقائه ومختلف علاقاته العامة والخاصة.

هذا الكاتب سينتج شخوصا هشة لا تكاد تولد حتى تلفظ أنفاسها، فأن أكون حرا أصعب بكثير من أن أكون عبدا لا ن الحرية تملأ قلمي بمسؤولية غاية في الحساسية تجاه ما أكتب، وهذا التعامل بين الكاتب وبين الشخوص يحمل حساسية عالية إليه ويحمل إليه الأرق لا ن أي كاتب في العالم لا يستطيع أن يرى بأنه ألمّ بكل شيء وامتلك الحقيقة كلها، وليس بوسع الإنسان أن يمتلك كل الحقيقة مهما بلغ من علوم ومعارف الأرض.

كنت دوما أتساءل وأمام هذا الحشد الهائل من الشخوص والعلاقات، من أين تأتي ذاكرة الروائي بكل هذا العالم، وكيف تدخل الشخوص إلى عالمه الروائي ؟.

الأفكار هي التي تولّد شخوصها وتلبسهم الثياب وتعلمهم الحركات والتفكير، وكما أن المولود يرضع من ثديي أمه، فإن الشخوص ترضع وتعيش من فكر الكاتب، وأيضا ماذا أعني بالأفكار، لنفرض أن الكاتب شاهد حدثا سعيدا أو تعيسا، وقد تأثر

به غاية التأثير، إنه هنا يريد أن يمجده أو يدينه وبالتالي يؤرخه. هنا تومض فكرة الكتابة إلى أن تتطور وتبلغ مرحلة لا يستطيع الكاتب تحمّلها إلى أن يباشر في الكتابة.

إن أي كتابة في العالم تأتي ليقول الكاتب من خلالها شيئا ما، ربما عندما يشاهد الكاتب مكانا أثريا أو يقرأ أحداثا تاريخية تومض لديه فكرة الكتابة، لكن حتى وهو غارق في القرون الغابرة فهو يكتب بأنفاس العصر الذي يعيش فيه، وهذا ما يبدو في الأعمال الروائية التاريخية المعاصرة التي تميز بها بعض روائيونا، وهنا تتخذ القراءة متعة إضافية، إذ أنك ترى أجدادك وفق مفهوم شخص معاصر.

أعود لا قول بأن الكاتب عندما ينوضع أمام مصائر شخوصه يبلغ مرحلة غاية في التوتر، وليست هناك قضية أألم من هذه، فليس دوما يحدث ما يريده الكاتب، أحيانا تأتي الشخوص وتجلب نهاياتها معها وكم يكون ألمي عميقا عندما تموت شخصية أكون قد تعلقت بهافي إحدى الروايات، وعندها لا أتردد من التحدث إلى الروائي فيقول له بأنه شعر ذات الألم عند الكتابة. وعندذاك يمكن لي أن أمارس كل طقوس الحداد ويصل احتفالي ذروته أمام حدث سعيد لشخصية أميل إليها فاحتفل ذاك اليوم وأعزم الأصدقاء وأقول لهم عن المناسبة.

ارتسمت بسمة على شفتي مدثر قائلا: ألاتوجد شخصية جديدة تعلقت بها لتعزمنا يادكتور ؟

قال حنيف وهو يبتسم: هنيئا لك ياسيدي، توجد شخصية جديدة تستحق أن أعزمك من أجلها، ثم قال: أريد أن أوجز لك بأن الكاتب يتعلق بشخوصه ويتعلقون به وبدون هذا التعلق لا تكون الولادة، أو تولد الشخوص من روح الكاتب ميتة وبدون آلام مخاض وأيضا غير مكتملة الفترة الزمنية، أي تولد ناقصة وميتة. وهذا أيضا لا يكفي فالكاتب عليه إلى جانب ذلك أن يمتلك البراعة في إقناع الآخرين بهؤلاء الذين يقدمهم، أن يجيد حسن التقديم ويدري كيف يغرسهم في نفوس القراء مثله مثل الحكواتي الذي كان يجلس في المقهى وينجح في استقطاب الناس يوما بعد يوم ليسمعوا بقية مارواه عليهم في اليوم السابق.

هناك شخوص متمردة ولا يعجبها التابوات ولا مقصات الرقابة ولا التقاليد والعادات وتريد أن تحقق لنفسها وجودا وهنا فحتى الصحف والمجلات ترفض هذه الشخوص خوفا من منعها في التداول فهي لن تضحي بدخول دولة أو عدة دول من أجل شخصية ولكن لحسن الحظ فان هناك مجلات وصحفا بدأت خصيصا للاهتمام بهذه النماذج من الشخوص تحت شعار (حرية الإبداع) ويمكن أن أرى عند ذاك دخول المجلة أو الجريدة مقصوصة بمقص الرقابة وقد تأخذ معها شخوصا بريئة أيضا ذنبها الوحيد أنها نشرت في نفس الصفحة في الأمام أو في القفى من الشخوص المحظورة أو الممنوعة فما هو محظور في هذا البلد هو مباح في غيره والعكس بالعكس فكما هي العادة أن الأشخاص الذين يتمردون يتعرضون للتوقيف

غالبا فالشخوص الذين هم على الورق أيضا يتعرضون للتوقيف ويُمنعون من ممارسة حريتهم.

إذن فشخوص الروائي يتنفسون الحرية التي يتنفسها، ويعانون المعاناة التي يعانيها. وهذا بالطبع لم يعد مصدر قلق وإزعاج فأي عمل في العالم لا يحمل المخاطر وروح المغامرة ولا يجلب لصاحبه الأرق هو عمل ناقص، والإنجازات الكبرى هي التي تصطحبها الآلام الكبرى فحتى لو كنت مهندسا قد تتعرض لمخالفة رقابية وقد تتوقف بهذه المخالفة وكذلك الكاتب يتعرض لهذه المخالفة.

الروائي هو الذي ينتج الشخوص وهم الذين يسعدونه ويحزنونه ويقدمونه مثلما يقدمهم ياعزيزي.

هاهي سنوات العمر تمضي وهو مايزال يبحث عن امرأة تستحق أن تكون زوجة له وأما لا ولا ده، ويستحق أن يكون زوجا لها وأبا لا ولا دها. نساء قليلات دخلن حياته، كل واحدة كانت لها خصوصية، . ومايزال يذكر تلك العلاقة الأثيرة لديه، يومها كان في الثامنة والثلاثين عندما لفتت انتباهه مذيعة في إحدى القنوات الفضائية، لبث يتابعها ثلاثة شهور متواصلة حتى تأكد بأنه متعلق بها وعليه أن يسعى لا يصال صوته لها بأي وسيلة، كانت كما تكهّن فتاة في حيطان الثلاثين من عمرها تبدو ناضجة وعلى قدر كبير من الذكاء، تتحدث من خلف الشاشة فيخفق قلبه وهو

ينظر إليها، وكان يومها يجاهد ما بوسعه حتى يغالب شوقه لا يدوميا ويبقى بعيدا عنها، إيدوميا، الحب الذي زلزله من الأعماق، ومجرد التفكير بالابتعاد عنها يحتاج إلى كثير من شجاعة.

وفي لحظات تخطر له فكرة أن هذه المذيعة يمكن أن تعينه على قرار الابتعاد عن إيدوميا وتركها امرأة حية في الذاكرة. كل كلمة كانت تملأه نشوة، يشعر بأنها تنظر إليه كما هو ينظر إليها نظرات كلها شوق ولوعة، كان أحيانا يحضر برنامجا باردا ويصغي لضيف ثقيل لا يرغب في الإصغاء إليه فقط حتى ينتهي من كلامه وتتجه الكاميرا إليها لتسأله سؤالا جديدا، كانت تلك اللحظات تجعله يمضي ساعتين من أجل أن يراها دقائق معدودة وهي تحاور ضيوفها.

ولم يجد غير أن يتشجع ويوجه إليها رسالة عبر البريد الإلكتروني للقناة، لقد تردد شهورا حتى استقر على ذلك وهو كله تردد وإحراج بيد أنها كانت طريقته الوحيدة لمخاطبتها.

وتلقى الرد في اليوم التالي وكان ذلك بمثابة الدفع له ليقدم على خطوة أخرى في ذاك السبيل الذي يوصله إلى المرأة التي تعلق بها قلبه كل التعلق ولم يعد ينظر في أي قناة غير هذه القناة التي اتخذت بالنسبة له طابعا سحريا.

في اليوم التالي لم يتردد من أن يرسل لها عبر البريد إحدى كتبه النقدية بعد أن وضع عليه عبارة إهداء تشير إلى مدى إعجابه بها ورغبته أن يلتقيا في وقت قريب.

ولم يستغرق ردها وقتا طويلا فبعد عشرة أيام تلقى رسالة منها عبر البريد الإلكتروني تشكره على الإهداء وتبدي رأيها وملاحظاتها على الكتاب الذي قرأته، وتقول بأنها عرضت على الزميل المختص بالبرامج الثقافية أن تستضيفه في إحدى حلقات برنامجه القادمة وأبدى تشرفه بمثل هذا اللقاء، وإن كان لديه وقت سوف ترسل إليه القناة تذكرة سفر للمشاركة في هذا البرنامج.

عندها أحس بأن الأمر بات يأخذ طابعا أكثر جدية وأن الحبيبة البعيدة التي لا تظهر له إلا من خلال الشاشة تستجيب لندائه ليكون قريبا منها وتكون قريبة إليه.

لم يتسرع في الرد وتمهّل حتى يأخذ وقتا كافيا لا تخاذ قرار كهذا. ينشرح صدره كلما يتخيلها على الشاشة، ينتظر ظهورها المشرق، ترتاح أذناه لنبرات صوتها، تقر عيناه لرؤيتها، وعندئذ لم يكن اللقاء المتلفز يخطر له على بال، لم يكن يفكر للحظة واحدة بالسفر كل تلك المسافة الطويلة من أجل أن يظهر نصف ساعة في برنامج متلفز، وما الذي تقدمه له هذه النصف ساعة.

ولكنها هي التي تناديه من أجل أن يلتقيها واقع كفه في كفها، فأبدى موافقته على مثل هذا اللقاء، لدى وصول الموافقة اتصلت به على هاتفه المحمول، لم يصدق ما

سمعته أذناه، إنه ذات الصوت السحري، إنها ذات النبرات. طلبت إليه أن يرسل صورة عن جواز سفره حتى تتمكن القناة من إرسال التذكرة بموجبه.

في اليوم التالي أرسل عبر الفاكس في حاسوبه المنزلي صورة عن جواز سفره وبات يرتب لا ستعدادات السفر. ولم يدم ذلك طويلا فقد اتصلت به شركة الطيران بعد أسبوع تخبره بوجود تذكرة سفر ذهاب وإياب باسمه وأن موعد السفر بعد يومين.

وفي يوم السفر اتصل به مذيع البرنامج يخبره بوجود مندوب القناة في انتظاره لدى وصوله إلى المطار ليصطحبه إلى الفندق. في السادسة مساء وصل المطار وصار يبحث بعينيه بين الشارات حتى وقع على اسم القناة بيد أحد الأشخاص ولما تقدم إليه وقعت عيناه على المذيعة التي رحبت به بحرارة.

في الفندق قالت له: سأدعك بعض الوقت حتى ترتاح قليلا من عناء السفروسأعود راجية أن تقبل دعوتي على العشاء: أنا أعتبرك هنا ضيفي أكثر مما أنت ضيف القناة يادكتور.

وانصرفت لتعود إليه في التاسعة والنصف مساء لتصطحبه إلى إحدى السفن لتناول العشاء – بعيدا عن زحمة الأرض – كما قالت له.

أمضى ثلاثة أيام أخرى إضافة إلى اليومين المخصصين للإجازة، تبادلا فيها عبارات الحب والإعجاب الشديد، قال لها: مارأيك أن أختار لك اسما ؟

قالت: كما تشاء، سيكون هذا الاسم خاصا بك، لن ينادهني به أحد غيرك.

قال: شفق، أجل أنت أجمل شفق رأته عيناي.

فابتسمت وقالت: لك ماتريد ياسيدي.

وعاد إلى بيته على اتفاق بأ ن تستمر بينهما العلاقة حتى تنتهي بالزواج بعد فسح زمن للمزيد من التعارف.

وتحولت العلاقة إلى المراسلات والهواتف والرسائل القصيرة التي يخبر أحدهما الآخر من خلالها عن برنامج هام، أو عن أغنية في إحدى القنوات.

في الصيف اتصلت به وقالت بأن لديها إجازة لمدة شهر تريد أن تقضي أسبوعا منها في الساحل. رحب بها بحرارة وعلى عجل اتصل ليحجز الشاليه قبل وصولها ليكون جاهزا. وعندها كان الإستقبال حارا حيث ذهب معها وأمضيا أسبوعا في الساحل، وكان كافيا للتوصل إلى قرار الفراق لا ن الفتاة أصرت أن يأتي هو إلى تلك الدولة الخليجية التي تعمل ويعمل هو الآخر في إحدى جامعاتها وفق اختصاصه لا نها لا تستطيع أن تتخلى عن عملها تحت أي ظرف، فقد تركت أهلها وبلادها من أجل أن تعمل في هذه المهنة. وأصر هو أيضا ألا يترك بلاده لا نه متعلق بها ولا يتصور أن يتركها، فعادت وكأ ن شيئا لم يكن، عادت وقد تركت لديه ذكريات أثيرة، وقد انقطعت العلاقة بينهما باستثناء أيام الأعياد فإنها تبادره بالهاتف وتعايده لمدة خمس دقائق.

– دكتور حنيف.. آسف يادكتور لحظة من فضلك لوسمحت

كان يمد يده إلى باب السيارة ليخرج من الكلية صوب إحدى المكتبات لعله يقع على رواية جديدة عندما أوقفه هذا الصوت، ولما التفت إليه رأى شخصا بدا له أنه رآه قبل الآن، مد الشخص كف المصافحة إليه قائلا: آسف مرة أخرى يادكتور، أناخالد معد برامج ثقافية في التلفزيون.

رحب به بحرارة وتذكر بأنه كان قد أجرى معه لقاء مطولا في إحدى البرامج الثقافية منذ ثلاث سنوات.

قال له المعد: غدا عندنا تسجيل ندوة حول الحركة الأدبية في بلادنا ومواكبة النقد لها، وسنخصص جانبا للرواية وعلاقتها بالمكان والتركيبة الاجتماعية التي تولد فيها. أنت لك باع طويل في هذا المجال وخاصة كتابك النقدي الأخير الذي تناولت فيه خصوصية العلاقة بين الشخصيات والمكان في عدد جيد من الروايات. يسرنا يادكتور أن تقبل دعوتنا لحضور هذه الندوة التي دعونا إليها أسماء بارزة في الرواية والنقد، سنبدأ التسجيل الساعة العاشرة ليلا وسوف تتأخر لدينا بعض الشيء، نرجو أن تأتي جائعا يادكتور حتى تتكرم علينا بمشاركتنا العشاء أيضا، لقد اخترنا يوم غد الجمعة للتسجيل لا نه يوم عطلة ولا ن اليوم التالي أيضا عطلة.

وعده بالمشاركة مسرورا وركب السيارة متجها ليس إلى المكتبة، بل إلى البيت وقرر ألا يكتب شيئا في كتابه الجديد، ويرتاح حتى يشارك يوم غد في البرنامج الذي سيستغرق وقتا طويلا كما قال له المعد. في أمسية يوم الغد وقبل ذهابه إلى مبنى التلفزيون بثلاث ساعات بدأ يرتب أفكاره للحديث المركّز على فكرة البرنامج وتخيل للحظات ماسيقول من مداخلات يمكن لها أن تثري موضوع الحلقة: تتغلغل الكتابة في أعماق أرضها ســنوات طويلة من العواصف والرعود والأمطاروتقلّب الفصول حتى تخرج إلى النور حاملة ريح الأرض والناس والبيئة التي ولدت فيها. وهو يؤمن بأن أي كتابة إبداعية تحقق في العالم تحقق الخلود قدر ما تتفوح بروائح تربتها، فالكتابة تقدم زمنا وأرضا ومجتمعا، ولذلك فان الصدق ينفجر من أكثر الكتابات التصاقا بتفاصيل المحلية، وليس ثمة سبيل أقرب إلى العالمية من محلية الأفكار والتعابير. كان دوما يقول لبعض زملائه من النقاد والروائيين:

أحيانا نقع على كتابات خالية من أي بذرة في تربتها وكأننا نقرأ شيئا مترجما، ولكن لا نثق بها لا نها غير مترجمة وأنها بعيدة عن حميمية بيئتها على الرغم من تواصلنا الدائم مع آداب الشعوب لا ن تلك الآداب أبدعها من ترعرع في تربتها ولذلك هو أكثر إمكانية من التعبير عن وقائع ما يكتب.

وحضرته عبارة لمستشرق قالها بعد اطلاعه على نماذج من كتابات كتب خلت من محليتها: / هذه بضاعتنا ردت إلينا /.

وقد ثبت ما قاله ذاك المستشرق، إذ أن هذه النماذج من الكتابات قامت بتقديم الغرب للشرق في جانب كبير من ولم تقم بتقديم الشرق للغرب، وهذا أفقد هذه ألأعمال بريق العالمية لا ن العالم يفتقد في كتابات ذاك الكاتب وقائع وحرارة وخصوصية الشرق، هذه اللمسات التي تجعل شخصا يسافر آلاف الأميال ليراها ويعيش تفاصيلها ولو يومين. وسيكون أمامه أن يضيف أيضا: في حين أن روائيا غارقا في تفاصيل حارات بيئته استطاع أن يقدم للغرب ما أذهله كما أنه نجح في أن يقدم لمجتمعه كذلك ما يذهله، ودوما من مقدرته النفاذة في التقاط تفاصيل حياة المجتمع الذي يعيش فيه تكمن عبقريته ا لتي اشتغل عليها منذ أن باشر في الكتابة. الكاتب الذي ينطلق من بيئة معينة لها خصوصيتها الدينية والاجتماعية والسياسية، فانه يتوجه بكتابته إلى هذه البيئة وهو ابنها فيكون الأصدق تعبيرا، وفيما بعد يغدو لسان حال بيئته إلى العالم ويكون خير رسول عن مجتمعه.

ثم يضيف بأن الأدب في أي منطقة يعبر عن خصوصيتها وتميزها كلما تناول واقع حياة الناس وعاداتهم وتقاليدهم وحتى مأثوراتهم الشعبية وحالة الطقس لديهم وأشكال عباداتهم، وألوان الأزياء، وإذا فشل في هذه المهمة فإنه يخرج عن محليته ويفقد حرارة المكان والمحلية، وبالتالي فانه لا يلزمنا عندما نريد التعرف على شعوب تلك المنطقة.

لم يكن تولستوي ياسادتي عبقريا في الكتابة فحسب، وكان يوجد من يجيد العبير والتصوير والكتابة على نحو أفضل منه، ولكن كمنت عبقريته في مدى قدرته على حمل بيئته وناسه إلى الأعلى إلى درجة أن القارئ بات بوسعه أن يتعرف على طبيعة المجتمع الروسي عبر روايات هذا الكاتب المحلي بامتياز لا نه سيتعرف على واقع الحياة العامة والخاصة والطقوس والتقاليد والعراقة الروسية، إنه يتعرف على الإنسان الروسي وعلى البيئة الروسية.

لم تكن الكتابة يا أعزائي عبارة عن تصوير مشاعر الكاتب، أونظرته في ظاهرة ما، ولكنها كانت عبر تاريخها تحمل الإنسان والبيئة وطقوس العمل ومعتقدات المكان، وحتى في المعلقات فإننا نستطيع أن نتعرف بحركة المجتمع الجاهلي من خلال قصائد شعرائه وكذلك نتعرف بطريقة الحياة وحتى بحالة الطقس والعلاقات الاجتماعية وأنواع الطيور والأعشاب، وهذا مايبقي هذه القصائد خالدة لا نها أصبحت تعنينا جميعا، وبالتالي شكلت تاريخنا في زمن ما، فنحن لا نبحث عن اللغة في هذه القصائد، ولكننا نبحث فيها عن أنفسنا وعن تاريخنا الغابر، وكذلك يبحث الآخرون من خلال هذه القصائد والكتابات عن تاريخنا ذاك.

الكتابة الخالدة هي التي تعني الإنسان، والكتابة التي لا تنطلق من تربتها ولا تحمل إنسانها فهي كتابة تولد ميتة، وبالتالي فإنها لا تلزم الإنسان في أي زمان كان أو أي مكان.

ويضيف كذلك: ما يهمنا بالدرجة الأولى هو واقعنا لا نه الأقرب إلينا ونحن كذلك الأقرب إليه ونستطيع أن نبدي الآراء فيه وعنه وكذلك نستطيع أن نقوم بعملية تمثيله أكثر من الذين يعيشون خارج هذا الواقع، الواقع الطبيعي يفرز مجتمعا طبيعيا، ومها سعى الإنسان فانه يلبث مغتسلا بآثار بيئته ويعجز أن يمحو عن روحه آثار الطفولة. الإنسان هو ابن بيته أولا، ومن ثم ابن البلد الذي ولد فيه، ومن ثم ابن الأمة التي ينتمي إليها، ومن ثم هو ابن هذا العالم، وهو ابن الأرض التي يعيش عليها وليس ابن السماء لا نه لا يستطيع أن يقيم في السماء، وهو يحزن عندما يموت لا لأنه يخسر السماء، بل لا نه يخسر الأرض رغم قناعته بأنه صاعد إلى السماء، فلا شيء يعوضه عن خسارته للأرض بمفهومه وللدلالة على ذلك فان الأقرباء يفتحون خيم العزاء ويرتدي الأقربون ثياب الحداد، يتجنبون أي مظهر من مظاهر المسرات ويعبرون عن استيائهم وحزنهم على هذا الفقيد الذي خسر الأرض ومَنْ عليها.

هنا تزداد مهمة الروائي حساسية وهو يرغب في تقديم الواقع وتقديم إنسان هذا الواقع.

ويلخص بقوله: ما يهم بالدرجة الأولى وقبل فكرة وجود أي موقع جغرافي هو تحرير الإنسان في وطن الرواية ودفعه لممارسة حريته ورفع صوتها في فضاءاتها، وحيثما يوجد إنسان متحرر مرفوع الصوت سواء في الرواية، أو على أرض الواقع، يكمن وطن متحرر حتى إن لم يكن ثمة وطن ولا راية خفاقة، وهذا الإنسان ذاته سواء في

الرواية أو في الواقع سيكون غيورا على أي بقعة أرض إن كان يعيش عليها أو لا يعيش عليها ويكون حريصا على حياة الآخرين سواء كانوا من أبناء جلدته أو غيرهم.

في اللقاء الماضي الذي أجري معه كان قد تم قطع جانب من حديثه، وعندما سأل عن ذلك قال له المعد بأن ذلك حدث حتى يتناسق مع الوقت المحدد للبرنامج، ولكن مهجة هي التي علّقت قائلة: لا أظن ذلك يادكتور، فأنت تتحدث أحيانا بطلاقة وتنسى بأنك أمام شاشة تلفاز.

قال لها: بالنسبة لي لا يهم كثيرا المكان الذي أكون متواجدا فيه، ما يهمني هو أن أكون قادرا على التعبير عن الفكرة التي أرغب في وصولها، وإلا لكان لكل مكان الحديث الخاص به المختلف عن الآخر، وهل المكان يفرض على المتحدث نمط الحديث أم أن المتحدث يفرض على المكان حديثه وحضوره.

في المساء قبل خروجه بقليل أخبر روهات أنه سوف يتأخر الليلة في تسجيل البرنامج وطلب منها أن تنام ولا تنتظره، لكنها قالت: كيف تقول ذلك، لن تغمض لي عين حتى أسمع صوتك وقد عدت إلى البيت، وبين ساعة وساعة سوف أتصل بك بالنقال حتى أطمئن عليك، لم تعد ملك نفسك يادكتور، إن لمن يحبك عليك حقا.

هاهو حديث مناف يعود إلى ذاكرته حرفا حرفا، وكلمة كلمة، وهو يتجه إلى مبنى التلفاز.

بالأمس في كل المناسبات الإعلامية والتكريمية التي رآها لم يكن يشعر بمثل هذا الشعور الذي ينتابه لا ول مرة.

إنه الآن يشعر بأن ثمة امرأة من دون كل العالم سوف تشاهده وهو يتحدث، سوف تكون فخورة به وهي تقدمه عبر التلفاز لصديقاتها وأقربائها، تتواصل معه وكأنهما يجلسان في غرفة محكمة.

يتذكر كل الأسفار التي سافرها لحضور المؤتمرات والمهرجانات واستلام الجوائز والمشاركة في تقييم بعض المسابقات والحوارات الكثيرة التي أجرتها معه القنوات الفضائية، كان أحيانا يقول بأن أهله قد يرونه ويتذكرونه، وكانت أفكار سريعة لم تحمل معها أي شعور بالمشاركة الحقيقية للآخر معه. الآن يعيش هذا الشعور بقوة ويشعر بأن روهات تمسك بيديه وتقوده إلى البرنامج، وهناك تجلس معه، ثم يعودان معا إلى البيت.

بعد نحو ساعتين من بدء البرنامج خطر له أن هاتفه لم يصدر صوتا، عندئذ مد يده إليه فرآه معطلا من الحرارة، تذكر سقوط الجهاز من يديه قبل أيام على الدرج، وعلم بأن ذلك قد سبب له هذا العطل، ولبث مشغولا على روهات التي لا بد أنها تتصل كل لحظة دون جدوى وأنها الآن شديدة القلق عليه. خطر له أن يستعير

هاتف زميل له، لكن الإحراج منعه من ذلك خاصة وأن الجميع يعرف بأنه يعيش لوحده في البيت، فما الذي يقوله وهو يكاد يتوسل من أجل أن يستعير هاتفا نقالا لا حد زملائه.

لقد منعته عزة نفسه من ذلك رغم اشتعال الإضطراب في داخله والذي بدا واضحا على سمات وجهه ويلفت أنظار الزملاء.

لبث إلى الخامسة صباحا وهو يسعى جاهدا ليخفف عن نفسه حالة الاضطراب حتى انتهى البرنامج فعاد إلى البيت عاجلا وكأن روهات تنتظره ليسمع مع مد الخطوة الأولى رنين الهاتف الأرضي، جرى إليه وكأنه يرن لا ول مرة، رفع السماعة ليتناهى صوت روهات متوترا: ما الذي حدث يادكتور، هاتفك لم يكن يرد، اتصلت مئة مرة بالهاتف المحمول والأرضي أين كنت، ألم يكن باستطاعتك أن تخبرني عن مكانك، ألا تعرف بأن ثمة امرأة ليس بوسعها أن تغفو قبل أن تسمع صوتك وتطمئن عليك.

استطعت أن أحصل على رقم التلفزيون من الاستعلامات واتصلت أربع مرات، ولكن يبدو بأن الحديث معك لم يكن ممكنا بسبب تسجيل البرنامج.

قال: ياسيدتي ماحدث أن الهاتف سقط من يدي منذ أيام ويبدو أنه تذكر بأنه عليه أن يتعطل الآن، في الوقت الذي كنت فيه بأمس الحاجة إليه، ولكن قلت لك مكاني وكان عليك النوم.

قالت: وأي نوم ياسيدي وكيف سأنام وأنا لا أعلم شيئا عنك، ثم أوقفها البكاء قليلا لتكمل بغصة وكأن النبرات تخرج من حنجرتها بالكاد: هل تظنني أني كنت قادرة على النوم لمجرد أنك طلبت مني ذلك.

حتى الآن لم أطفئ الضوء، صورتك الموجودة على إحدى كتبك هي عزائي الوحيد، أنظر إليها وأتحدث معها دون أن ترد، منذ أن عدتُ إلى البيت لم يمر علي يوم لم أطبع فيه قبلات على هذه الصورة، أحيانا عندما كنت أذهب لزيارة أحد أقربائي لعدة أيام كنت أحمل الكتاب معي حتى أقول أطبع قبلتين في المساء على عينيك وأقول لك: تصبح على خير.

وفي الصباح أفتح عيني وأهمس لك: أما زلت نائما، انهض لقد حان وقت ذهابك إلى الكلية.

وأطبع أيضا قبلتين على خديك.

واعلم ياسيدي أنه لا توجد امرأة واحدة على سطح الأرض لا تشعر بالغيرة على حبيبها أو على زوجها، أما تلك المرأة التي تقول أنها لا تغير فإنها امرأة ميتة الأنوثة، ولذلك يكون لديها استعداد أيضا أن تضع يدها بيد زوجها ليبحثا لها عن ضرة، لا نها وهي تمضي نحو ذلك تكون مجردة من كل مشاعر الأنوثة ومشاعر الانتماء إلى حواء. أرأيت أن عاد الرجل فوجد رجلا في سريره الزوجي، فإن آلام المرأة وصدمتها

تكون مضاعفة من شعوره ذاك وهي ترى امرأة أخرى مع زوجها سواء كانت زوجة أو عشيقة، وما ذلك ياسيدي إلا لا ن الزوج بالنسبة للمرأة المخلصة كل الإخلاص هو تلخيص للعالم كله، بيد أن الزوجة مهما كانت مقربة من الرجل فإنها لا تكون بالنسبة إليه العالم كله ولكن كل ما في الأمر وببساطة شديدة، ثم ضحكت وأضافت: وبثقة شديدة أيضا: أن المرأة تتمتع بطاقة على التحمل والجلد أكثر من الرجل. كانت تقول ذلك بنبرة مشحونة بالبكاء، فعلم بأنها لم تكن كفت عن البكاء وهي تجري الاتصال تلو الآخر.

قالت: لننس كل هذا الانتظار، وبالمناسبة مادام التلفاز قد تسبب لنا في هذا الإضطراب ما رأيك أن نتحدث قليلا عن ثورة القنوات الفضائية التي غزت حياتنا يادكتور، مارأيك بكل هذا الحشد الهائل من المحللين السياسيين.

قال: ياسيدتي لدي استعداد تام للحديث في أي أمر ما دام يخفف عنك ويقدم لك اعتذاري الشديد، ولكن اغلقي السماعة الآن، سأبدل ثيابي وأحضر فنجانا من القهوة وسوف أحدثك من غرفة النوم بعد قليل.

بمرور نصف ساعة استطاع أن يهيئ نفسه للحديث معها وهو مستلق على ظهره في السرير ويتناول فنجان القهوة مع تفاحة وحبات من اللوز وضعها حول صحن فنجان القهوة، مع الرنين الأول رفعت السماعة ليقول لها بصوت خفيض رتيب النبرة: الآن صرتُ مستعدا للحديث معك وأنا بكامل هدوئي.

ابتسمت وقالت: وأنا أيضا أحضرت فنجانا من القهوة.

قال: أظن ياروهات أن ظهور القنوات الفضائية في عالم الشرق الأوسط منذ عقد ونصف فتح لنا نافذة نطل منها على مايجري في العالم، ويطل منها العالم على مايجري فينا، ولكن أي منجز هائل وخلال التاريخ البشري كان دوما لا يخلو من سلبيات يمكن أن تتفرع عنه فتكون في بعض التجارب أعلى من الإيجابيات التي اتسم بها ذاك المنجز.

قالت: لقد غزت القنوات الفضائية بيوتنا وعقولنا وأغلب أوقاتنا ولا أظن أن أحدا في عالمنا يمكن له أن يستغني في هذا الوقت عن هذه الأطباق السحرية

– بل حتى الغجري المتنقل بكثرة في البراري والأرياف وهو الأمّي غدا يحمل خيمته القماشية بيد وبالأخرى يحمل خيمته المعدنية الصلبة هذه.

أمام كل هذا الانفتاح الهائل لعالم القنوات الفضائية فكان من الطبيعي أن تعتمد في برامجها الرئيسية على كوادر هائلة من مختلف ألوان وأشكال التعبير حتى تضمن لنفسها الاستمرار والانتشار، وقد أدى هذا إلى ثورة هائلة في عالم الأغنية وعلى الأغلب / الفيديو كليب /، ثم إلى ظهور ثورة من الفتاوى، ثم إلى ظهور ثورة أخرى في عالم التحليل السياسي.

فكانت النتيجة هذا الكم الهائل من المغنين والمفتين والمحللين السياسيين الذين غصت بهم مباني القنوات الفضائية وأدت بالتالي إلى ما أدت إليه مما ندفع ثمنه

الباهظ الآن. وهنا أريد أن يكون التركيز بعض الشيء علىولدت ظاهرة المحللين السياسيين، وهو مصطلح جديد على أسماع غالبية الناس إذ أنه بدا متداولا بعد ظهور هذه القنوات، وهؤلاء على الأغلب تختارهم هذه القنوات من الجامعات أو من أوساط الكتاب والصحافيين، أو من مسئولي التنظيمات السياسية.

إذن ماهو التحليل السياسي، ومن هو المحلل السياسي ؟

عندما نقول التحليل فإن أول ما يتبادر إلى الذهن اسم فرويد المحلل النفسي الشهير، فاقترن اسمه بالتحليل النفسي، إذن فهو كالتحليل الاجتماعي، والتحليل الديني، فيكون المحلل محللا عندما يتمتع بما تمتع به فرويد ويونغ من علوم التحليل النفسي، وما تمتع به جان جاك روسو وابن خلدون من علوم التحليل الاجتماعي، وماتمتع به أبو حنيفة وابن كثير من علوم التحليل الديني. يكون هذا المحلل قد اطلع على آلاف الكتب التحليلية للأحداث الكبرى التي وقعت في التاريخ، إضافة إلى توفر موهبة عميقة تضيء له معالم عمله، إذ أن الدرس لوحده لا يكفي هاهنا، فالمحلل السياسي ياسيدتي يكون بحكم مهمته عالما بشيء من شؤون الدول، ويكون على دراية كافية بعلوم التأ ريخ، على دراية بأجناس الفنون والآداب، وعلى دراية كافية بعلوم اللغة والتعبير والإقناع لا ن كل هذه المعارف سوف تمكنه من حجته، فما لا يراه في شؤون الدول، يراه في التأريخ، وما لم يره في التأريخ يراه

في الفنون والآداب. هنا يمكن للمتلقي أن يشعر بأنه أمام محلل سياسي حق، وأمام تحليل سياسي حق وغني بشواهده.

من هنا أستطيع القول بأن كل هذه الثورة التي فجرتها القنوات الفضائية في عالم التحليل السياسي لم تنجح حتى الآن من تقديم محلل سياسي بارع استطاع أن يقدم بالفعل تحليلا سياسيا عميقا عن هذه الأزمات التي تمر بها بلادنا، بل على العكس فإن جانبا كبيرا من هذه / التحليلات / وهي على الأغلب وإن كانت لا تخرج إلا عن كونها آراء شخصية حسب الإمكان، أو حسب اعتبارات أخرى، فإنها تلحق الأذى بالبلاد والعباد، وتسهم في تأجيج الأزمات واتساع دائرتها ذلك إنها لا تأ تي من مختصين في هذه المهمة.

وهذا ماحدث على الأغلب في أحداث هذه المنطقة عندما كثر محللوها وتشتت رؤاهم.

فنكون بعض الأحيان أمام شخص يطل من هذه الشاشة أو تلك وقد تم وضع عبارة / محلل سياسي / تحت صورته وكأننا أمام طبيب يصف العلاج لمريضه دون أن يراه أو يجري عليه فحوصات حسية ولو أولية، ولكنه فقط يتحدث معه في الهاتف وبناء على هذا الحديث الهاتفي يصف له الأدوية، ويكون حاله كحال شخص أتى يفتي في الناس وقد قرأ جزءا واحدا من القرآن دون أن يقرأ بقية الأجزاء، وبناء على هذا الجزء يأتي بالفتيا دون أن يدري بأن ثمة جزء قادم قد نسخ ماقد قرأ.

ولذلك أيضا فإننا لا نتردد من الاطلاع على التحليلات السياسية التي تردنا من مختصين غربيين، وهي بتقديري قد استطاعت أن تقدم تحليلات وافية ومن كل جوانبها حول هذه الأزمات التي تصيبنا وتصيب العالم من حولنا.
إننا في هذه الفترة أكثر مانحتاج إلى تحليل سياسي ناضج يستوفي كل شروط التحليل السياسي للأحداث التي تواجهنا، وهذا لن يكون إلا إذا أمضى المحلل السياسي أغلب وقته في الإطلاع، أي أن يقرأ أضعاف أضعاف ما يكتب أو يتحدث، وعندذاك يكون بإمكانه أن يستند على وقائع أحداث وقعت عبر التاريخ البشري لا ن هذا التاريخ بطريقة أو أخرى يكمل بعضه البعض في سلسلة متواصلة.

لم يعد بإمكانه أن يخفي على نفسه بأنه بدأ يشعر بمسؤولية كبرى تجاهها وللتو أدرك كم أنها متعلقة به، ومَنْ غيرها يسهر ويقلق من أجله حتى هذا الوقت المتأخر، أهي أمه أ وأخته، والده، أخوته، صديقه أم صديقته. للتو أدرك أنه الحب الكبير الذي لم يعد بإمكانه أن يستغني عنه ورغب في تلك اللحظة بكل شوق فيما لوكانت بالقرب منه ليحتضنها ويغفو على ذراعها حتى الظهيرة.

* * *

كالحلم البعيد هاهي العطلة الصيفية تظهر كالشفق في ليل طويل مرة أخرى، كالحلم البعيد الذي جاء ليأخذه إلى حلم آخر يرغب بشوق عارم أن يفتح عينيه على طقوسه. العطلة الصيفية التي كان ينتظرها في السنوات الماضية ليقضيها خارج البلاد، يقضي شهرا عند أخيه كاديس توأم خلات في هولندا، وشهرا عند أخيه نبي في بلجيكا، وشهرا عند أخته خلات المتزوجة من ابن خالها في فرنسا، واحتفاء به أسمت ابنها الأول الذي ولد عندما كان هناك في العطلة الماضية باسمه.

كانت تمضي العطلة وكأنها ثلاثة أيام وهو متنقل من بلد إلى آخر، من وليمة إلى أخرى، من دخول بيت إلى آخر، كان الأقرباء والأصدقاء وأبناء القوم يلتمون عليه ويختطفونه من أيدي بعضهم بعضا، يسألونه عن أخبار الأهل والأقرباء، وعن أخبار البلاد، وكانت بعض المحطات الفضائية والصحف والمجلات المهاجرة تجري معه لقاءات حول أوضاع البلاد لكونه شخصية ثقافية مميزة قدمت من أرض الوطن. كان يمضي ثلاثة شهور حافلة ويعود إلى عمله نشيطا.

الآن يشعر بأن ذاك الحنين خفت نحو تلك الأجواء التي لم تعد تعني له الكثير، فقد تلك الحرارة واللهفة للدخول إلى تلك الأجواء الجديدة، يشعر ببرود وهو يتهيأ للذهاب، ولكنه أدرك سبب كل هذا البرود لا ن ثمة حنين آخر يستيقظ في جوانحه، حنين إلى تراب القامشلي، تراب الماضي الذي يستسقط بكل ذراته في الخيال، حنين إلى تلك الحارات القديمة والشوارع التي طالما مشى فيها حافيا ولعب فيها مع الأطفال حتى الغروب.

ويتخيل نفسه طفلا في كل تلك الأزقة، الصفوف الأولى التي محت أميته: ولكن أهو الحنين إلى القامشلي حقا يا حنيف، أهو الحنين لطبع قبلات على يدي والأب والأم ومعانقة الأخوة والأقرباء فقط، أم أن ثمة ما هو لا يقل عن حجم هذا الحنين. لم يشأ أن يرد على سؤال نفسه، ولكنه بات أكثر حنينا وأكثر إصرارا لقضاء هذه العطلة كلها في القامشلي الحبيبة، قامشلي، قامشلو، قامشلوكي، قامشليكي، مسقط الرأ س، التي بدت إليه لا ول مرة أجمل وأبهى من أي مدينة أوربية.

أو ليصارح نفسه كما اعتاد أن يصارحها: / قامشلوكا روهات / هذه المرة. روهات التي قلبت كل موازين حياته وكل مفاهيمه حول المرأة، كان لا يتخيل أن يقترن بامرأة دون الثلاثين ويتصور بأنها سوف ترهقه بمراهقتها وطلباتها الصبيانية التي لن يحتملها، طوال عمره وهو ينجذب نحو النساء الناضجات اللواتي تقدمن قليلا في الحياة، حتى أنه عندما يرى امرأة مشهورة في مجالات الأدب أو الفن أو السياسة

في إحدى البرامج التلفزيونية فإنه يتابع حوارها بدهشة وكأنها تسحره بذكائها وحديثها فيقول في سره: يالسحرية هذه المرأة. يتابع حديثها بإعجاب ويرفض حتى أن يرد على الهاتف حتى لا يقطع أحد استغراقه واستمتاعه بهذا الحديث.

حتى رويدا فلم يكن يعجبه فيها شيء قدر نضجها ووعيها وتقدمها في العمر، كانت تتعامل معه بخبرة حياتية وتبدو أمامه كشجرة عامرة بالياسمين. كان يشعر براحة معها حتى وهو في ذروة قلقه في كتابة فصل جديد، كانت تأخذه إلى السرير برفق وتهدئه وتهدهده حتى ينام فيصحو صباحا وهو في ذروة صفاء ذهنه، يتناول الهاتف ويتصل بها في الدائرة ليشكرها على كل ما بذلته من أجله ليلة أمس، فتقول: ولكنك ابني الصغير يا حنيف، وكيف كان يمكن أن أذهب قبل أن أهدهدك لتنام ياعمري.
رويدا التي حققت له ذروة الاستمتاع بكل ألوان وأشكال الجنس بجسدها الذهبي ذاك وجعلته يشعر لا ول مرة بأنه متزوج، كان جسده يشرق ويتفتح جنسا عندما كان يحتضنها في المطبخ أو في غرفة النوم، أو في مكتبته وهو يكتب، أو وهو يتحدث في الهاتف، أو هو يضع لقمة طعام لذيذة في فمها، أو هو يميل على يديها فيقبل أصابعها إصبعا إصبعا، ثم يداعب جسدها ذرة ذرة من شعر رأسها إلى أصابع قدميها ويتأمل جماليات وتقاطيع الجسد الذهبي المسترخي على سريره والمستسلم استسلاما كاملا له، كانت أرق وأثرى امرأة دخلت حياته.

ولكنها كانت جسدا فحسب، ولم يكن ينظر فيها إلا إلى جسدها، عندما كانت تفتح الباب وتدخل، لم يكن يدخل منها غير جسدها، وهو لم يكن يستقبل منها غير جسدها ولم يكن يحتفي بغير جسدها. كان ينهض عند دخولها وهو يتأمل جمالية الجسد بكامل ثيابه، يدنو منه ويضمه إلى صدره، ثم يوزع قبلات أولية على وجهها وعينيها وفمها ومساحة الرقبة، ثم تمتد أصابعه برفق لتنزع الثياب حتى يصبح الجسد بين يديه بكامل عريه، كان يصر أن ينزع عنها الثياب بيديه قطعة قطعة كما لو أنه يقشر بيضة برفق، وعندئذ يقعد في وليمة خصوبة الجسد، كانت تقول له بأنها لا تدخن أبدا، ولكنها في أجواء كهذه تتوق لتدخين سيجارة، كما أنها قبل خروجها بلحظات تتوق أن تودعه وهي تشاركه شرب فنجان قهوة، لذلك كانت دوما ثمة علبة دخان / كنت / موجودة في البيت بانتظار أن تمتد أناملها إليها في تلك الأجواء السحرية وتشعل سيجارتين تناوله واحدة وتترك واحدة بين أصابعها.

كان يشاركها التدخين وهو يمرر بيديه على كل وردة وكل نبتة وكل شجرة وكل عشب، ولم يكن يخفي بأنه أحيانا يحسد حتى نفسه على كل هذا الجسد الذي بات يمتلكه. بعد انتهاء السيجارة يحمله على ذراعيه ويلج الحمام، يتمتع بتلييفه وتدليكه عضوا عضوا بالماء الساخن، يضع فمه في فمها ويبقيان تحت قوة رذاذ الماء المندفع من الدش، ثم يلفه بالمنشفة، يستمتع بتنشيف حتى أصابع اليدين

والقدمين، ويأتي بملاءة ناصعة البياض، يلفها على الجسد ويحمله على ذراعيه كما لو أنه يحمل حديقة نحو جاذبية السرير.

أحيانا كانت تخطر له فكرة أنه لا يرغب في تركها فقط حتى لا تمنح هذا الجسد لغيره، كان مجرد تصور ذلك يستفزه وهو يشعر بأن هذا الجسد خلق له فحسب، ولا يحق لا حد أن يلمسه أو حتى ينظر إليه نظرة واحدة، بل لا يحق لها أيضا أن تفكر تفكيرا كهذا لا ن الأمر بات يعنيه أكثر مما يعنيها. كانت دوما تراوده فكرة أن أي رجل آخر عندما يلمس هذا الجسد، أو حتى تقع منه نظرة على إحدى عوراته، سيكون ذلك قد مس أعمق وأخفى أسراره، وسيبدو في اليوم التالي كما لو أنه يمشي عاريا في الطرقات، سوف يرى ذاك الرجل صورته، ويشم رائحته من الجسد، أجل حتى هي دوما تكرر له: رائحتك لا تفارقني يا حنيف، لقد امتزجت مع كل ذرة في نسيج جسدي، تصور أحيانا يذهب بي الظن وأنا أمضي في الشارع متجهة إليك أن أحد الجوار يمكن أن يشم رائحتك مني. وأحيانا في البيت عندما تدنو أمي أبتعد عنها خوفا من أن تشم رائحتك من رائحتي أو صوتي.

ولا ينسى تلك العلاقة التي مرت في حياته مرور الكرام عندما زار خلات في فرنسا لا ول مرة، ورغم ذاك المرور فإنها تركت بصمة عميقة في فؤاده لا ينساها، وماتزال تلك المرأة تراود مخيلته بين حين وحين، يتوق إلى إيقاع نبرات صوتها، إلى قوة ودفء عاطفتها، وأحيانا عندما يشعر بقوة الوحدة ورعبها، أو عندما يشرب كأسا

وهو وحيد دون أن يشاركه أحد، ويشعر للحظات أنه جالس لوحده في صحراء، لا يتردد من أن يرفع السماعة ويهاتفها قائلا بأنه يتمنى فيما لو كانت جالسة معه في هذه اللحظات السحرية، كان حضورها سيبدد وحشة الوحدة التي تجتاحه، إن شوقه إليها هو الذي جعله يهاتفها ولا يهاتف غيرها في هذا الوقت المتأخر من أعتاب الليل، فتنشج وهي تصغي لحديثه الذي يبدو فيه أضعف مخلوق في الأرض: رجاء ياقلبي ضع السماعة وسوف أتصل بك. وتصر على ذلك حتى لا تكلفه المكالمة نصف معاشه، فيغلق وبعد لحظات يأتي رنين هاتفها حاملا إليه ونس وامتلاء العالم، يستغرق الحديث الليلي ساعة كاملة مايلبث أن يغفو على كلمات الوداع والقبلات التي يرسلانها عبر الأسلاك، يغفو وهو يزداد ثملا وتدور الجدران أمام عينيه كأنه في مرجوحة، ويستيقظ صباحا في ذروة صفاء الذهن.

كان يومها في الخامسة والثلاثين يزور فرنسا لا ول مرة بدعوة من أخوته، وكانت لديه رغبة في زيارة تلك البقاع، كان يجلس في بيت خلات عندما علم من خلال التلفاز بموعد تتويج ملكة جمال فرنسا، دوّن الموعد لديه حتى لا ينساه، وطلب من أخته أن تذكره به حتى يحضر هذا الحفل.

في الموعد تهيأ للخروج من البيت صوب الحفل وهو يتخيل أنه سوف يرى جميلات البلاد وهن يتنافسن في إظهار جمالهن وفتنتهن، كان ذلك يعني له الكثير، إنه اكتشاف خفايا الجمال الحي والاستمتاع بالتأمل في فضاءاته وجها لوجه، ولم

تكن خلات تملك الوقت الكافي لترافقه لا نها كانت تقوم بصناعة الطعام الذي يحمل نكهة القامشلي، كانت تعجن من أجل الكبيبات والشامبورك احتفاء بحضوره، ولم يتمكن زوجها أيضا من مصاحبته لا نه كان في عمله بالمحل الخاص ببيع الجوارب.

يومها خرج لوحده واتجه إلى موقف المترو الذي يأخذه إلى قاعة الحفل، انتظر في الموقف وهناك لفتت انتباهه امرأة في حيطان الخامسة والأربعين من عمرها رشيقة ماتزال تحافظ على ملامح هادئة للجمال والجاذبية في وجهها وقوامها، كانت تقف في الموقف وبين لحظة وأخرى تلقي نظرات إلى كتاب صغير بيدها، لبث ينظر إليها بجاذبية، ووقعت نظرات منها إليه، أدركت أنه مستغرق بالنظر إليه، ثم مالبثت أن نظرت في الكتاب، وبعد قليل عادت تنظر إليه، أحس في تلك الهنيهة أن نظرته عانقت نظرتها، وهي كذلك أحست بتلك النظرات وأبدت ارتياحا من خلال نظرة شبه عميقة، فلم يملك نفسه من أن يتقدم إليها ويحدثها بلكنة فرنسية خفيفة، بدت أمامه امرأة في غاية البساطة والتجاوب وهذا ما زاده ميلا إليها، يومها أحس براحة هائلة وهو ينظر إلى هذه المرأة وبدا إليه أنه ليس حديث العهد بها، لم يكن قادرا على تجاهل الأمر وكأنه لم يرها، أحس بأنه لا بد أن يحدثها وأنه فقد مقاومة هذه الرغبة، كانت ثمة جاذبية في تلك الملامح تصرخ به: وما أدراك أن ليس هذا هو الحب العظيم الذي تبحث عنه يا حنيف، وما أدراك أن ليس هذه هي المرأة

الأسطورة التي تستعد أن تجوب من أجلها العالم وتنفق كل عمرك من أجل أن تراها وتعيش معها ولو يوما واحدا، سيكون ذاك اليوم بمثابة عمر بطوله وعرضه، بغناه وفقره، لا نه سيقدم لك اختصار عمر بأكمله.

ولعل ما جعله أكثر شجاعة هو أنها كذلك بادلته نظرات الإعجاب الشديد مبتسمة، كانت النظرات تنادي النظرات، بدت تنظر إليه بدهشة ناسية كل شيء وكأنها لا تريد أن ترفع نظراتها عنه، في تلك اللحظات دنا إليها ومد كف المصافحة، فمدت كفها بسرور، أحس لدى ملامسة كفه بكفها أن عضلة قلبه هي التي صافحت عضلة قلبها، عندئذ لم يتردد من أن يعرض رغبته بالتعارف عليها وعندما أبدت سرورها بالتعرف عليه، دعاها لتناول فنجان نسكافة في مقهى قريب على الرصيف. أبدت موافقتها وامتنانها على عزيمته وهي تبادله ذات نظرات الإعجاب.

لم يسبق له أن شعر بكل تلك المشاعر نحو امرأة، لم يكن يخفي عن نفسه أنه رغب بها بقوة وكأنها فتاة في السابعة عشرة من عمرها، ولكن لم تكن الرغبة وحدها، لقد كان الحب الذي استيقظ عليه فؤاده لا ول مرة بكل ذاك الدفء.

فأجلا معا الانتقال بالمترو إلى ما بعد تناول النسكافة، أحس براحة هائلة وهو يمضي مع هذه المرأة أعذب لحظات الحب المفاجئ الذي قد يصادف حياة المرء

مرة واحدة في العمر، أو قد يمضي عمره دون أن يصادف مثل هذا الحب الكبير الذي يولد في لمحات خاطفة وفي مكان غير مناسب لمشاعر شديدة الخصوصية.

بعد التفرغ من الشراب والجلوس ساعة على كراسي خشب الخيزران والاستماع إلى أغنيات فرنسية ذات إيقاع سريع، دعته أن يقبل عزيمتها على العشاء في شقتها، وألحت عليه أن يقبل هذه الدعوة ليمضيا وقتا أطول في التعرف على بعضهما.

أحس بإحراج شديد وهي تلح عليه فقال بأنه هو الذي يرغب في تعارف كهذا، بل هو الذي يتوسل إليها حتى يجلسا في مكان آخر لبضع ساعات لا نه لا يتخيل أنه يستطيع أن يمضي وكأنه لم يرها. ثم رفع كفها قليلا، نظر في عينيها ووضع قبلة دافئة على ظاهر الكف، ثم رفع كفها إلى جبهته.

عندئذ انحدرت دموع من عينيها وحضنته لبضع دقائق ومضيا نحو البيت وكفاهما متشابكان كخطيبين خرجا من حفل الخطوبة للتو.

كانت امرأة في ذاك العمر، ولكنه لم يكن يشعر بأي فارق بينها وبينه، بدت أمامه في ريعان صباها وبدا مراهقا يكتشف المرأة لا ول مرة في حياته، بل تدفعه رغبة جامحة نحو المرأة لا ول مرة. قالت أن اسمها إيدوميا وسبق لها أن تزوجت مرة واحدة دون أن تتفق مع زوجها لا نه فقد شفافيته بسبب أعماله المتراكمة وتعلقه الشديد بالمال، كانت كل أحلامه أن يصبح من أغنياء العالم، وتطلقت منه بعد أربع

سنوات من الزواج عندما أنجبت ابنها الوحيد الذي لا أحد لها في العالم غيره وغير حفيدة واحدة منه.

ذاك هو الزواج الأول والأخير، ولكن مرت في حياتها فيما بعد علاقات لم تبلغ مرحلة الزواج.

ضغط على كفها وهما ما يزالان يمضيان نحو البيت سيرا على الأقدام وكأنه في خوف شديد من أن تضيع منه، كان يشعر بأن كل أبواب البلاد انفتحت أمامه في تلك اللحظات.

قال: أتعرفين بأنني أخشى أن أترك يدك فلم أعد ألمسها مرة أخرى. وقال بأنه أحس بجاذبية هائلة نحوها عندما وقعت نظرته الأولى على وجهها، وهو واثق من مشاعره نحوها وأنه يريد أن يتزوجها ويأتي بها إلى بلاده: أنا ياسيدتي من سلالة مجتمع يعقد آمالا كبرى على النظرة الأولى، هناك لا مكان ولا زمان لتكرار اللقاءات، عندما يريد المرء أن يتزوج فإنه يدخل بيت أهل فتاة ويطلب أن يراها، فتدخل حاملة فنجان قهوة تضيفها إليه، وتبرك جوار أمها لمدة نصف ساعة تكون كافية ليتخذا قرارا مصيريا كبيرا كهذا، بعدئذ تكون تلك النظرات الأولى هي الحاسمة بقبول الزواج أو رفضه بالنسبة لكليهما. القلب لا يخدع صاحبه، والعينان لا تخدعان ذوق صاحبهما.

قالت: تلك العلاقات الزوجية تعمّر أكثر مما يحدث في بلادنا، وهي تتسم بالعفاف أكثر من العلاقات الزوجية التي تحدث بعد عشرة طويلة، إنها برأيي خير دليل على براءة الإنسان وثقته بذوقه ومشاعره، وأن الأمر كله لا يحتاج إلى كل ذاك التعقيد الذي يكون أحيانا في بلادنا التي نعاني فيها أحيانا من نقص في الروحانية فنشعر بأننا في ليل طويل.

عند دخولهما إلى فراغ الشقة التي ذكرته بفراغ شقته من رائحة الأنيس، لم يشعر بغربة قدر شعوره أنه دخل بيتا مألوفا. أخبرته أنها تعيش في هذه الشقة وحدها، ولا يزورها غير ابنها وحفيدتها في أوقات متقطعة، وليس لها علاقات صداقة غير صديقة واحدة تتمتع بروح النكتة العالية تأتي أحيانا تمضي عندها بضعة أيام من الضحك والمرح، وتزورها هي أيضا بضعة أيام في بيتها بين فترة وأخرى: الأمر ياعزيزي مع هذه الصديقة قريب إلى شيء من الترويح عن النفس.

امتدت يده إلى شعرها، ثم إلى وجهها، احتضنا برفق، ثم اندفعت إلى جسديهما قوة الاحتضان، وقع فمه في فمها يستنشق أعظم لحظات اللذة من ذاك الفم الصغير الذي بدا أمامه كوردة صغيرة تتفتح في ربيع الوجه المبارك ساعة الشفق الأولى. قالت وهي تبادله ذات النشوة وقد سالت دموع من عينيها بأن عليه أن يفكر طويلا قبل أن يتخذ قرارا كهذا.

وقالت بأنها توقفت عن الجنس منذ خمس سنوات ولم يكن يخطر لها ببال أنها سوف تعود إليه بعد هذه السنوات رغم أنها لم تأخذ منه كفايتها، ولم تعش ذروة حالات الجنس بسبب عدم تعرفها على الرجل المناسب الذي تشعر بأمان وهي تضع جسدها بين ذراعيه. بعد قليل من صمت تناغم همسها إلى أذنيه بالفرنسية التي يلتقط معانيها بالكاد: الشروط الأولى لبلوغ الجنس إلى ذروته هي توفر الحب والأمن والوقت الكافي إلى جانب الرغبة من الطرفين. ولم تكن محظوظة في ذلك، وفيما بعد أدركت أن ذلك لم يعد يعني لها شيئا مجديا، ولم تكن تعلم أن جسدها يمكن له أن يستجيب لهذه الإثارة بعد خمس سنوات سبات ويحقق لها كل تلك الرعشات المتدفقة التي بدت تهطل على صحرائها كأمطار الربيع الرذاذية. أردفت بنبرات مشحونة بغصة بكاء: ولكن ياعزيزي يبدو أن سطوة الأنوثة تلاحق المرأة مهما طال بها العمر، وتريد أن تكون امرأة مرغوبة من قِبل الرجل حتى اليوم الأخير من عمرها، لا تصدق أن ثمة شيء يعكر صفو المرأة قدر إحساسها بأنها لم تعد مرغوبة من قِبل الرجل، عندئذ يستبد بها شعور مظلم أنها لم تعد مرغوبة من قبل الحياة برمتها، أنها باتت كائنة متطفلة لا تلزم الحياة، ومن ظلمة هذا الإحساس يتولد في عمقها شعور بأن الحياة أيضا لم تعد تلزمها ولم تعد تعني لها شيئا مجديا. عندئذ تدرك بكل ثقة أنه لم يعد في حياتها من شيء سوى أنها تنتظر حفنة تراب.

بعد ذلك جلسا على كنبة جوار بعضهما بعد أن أحضرت زجاجة ويسكي وصحنا من الموز المقطع.

في تلك اللحظات الاسترخائية العظمى وضع رأسه في حضنها وأغمض عينيه فطلبت إليه أن يتحدث عن نفسه وعن ماضيه، فقال وهو مغمض العينين: كانت القامشلي المدينة التي ولدت فيها ثرية بكل ألوان الحياة، كانت رائحة التاريخ تفوح منها بقوة، أذكر بأننا على مقاعد الصفوف الأولى من المرحلة الابتدائية كنا نجلس في الشعبة الواحدة من أديان ومذاهب ولغات وقوميات عديدة، كنا أخوة أحباء لا يفرقنا شيء، لم نكن نتخيل بأن ثمة شيء يكون بمقدوره أن يبعد بيننا، كنا نبني علاقات غاية في الحميمية مع بعضنا البعض.

أذكر أن أحب صديقات أمي اللواتي كن يزرنها على الدوام كان اسمها تيما، تقطع مسافة نصف ساعة على قدميها من بيتها حتى تأتي لزيارة صديقتها وتجلب معها ألوان الطعام، كانت تعطيني نقودا معدنية كلما تراني في بيتنا أو بيتها، أو تراني مصادفة في إحدى الأماكن.

أمي دوما كانت تأخذني إلى بيت صديقتها تلك وكنت أصمت دهِشا وهي تتحدث مع أولادها لغة لم أسمعها من قبل، ثم تتحدث مع أمي اللغة الكردية والعربية معا، وكانت أمي كذلك تجيبها باللغتين، الكلمة التي لم تكن تفهمها بالعربية كانت تقولها

بالكردية، والكلمة التي لم تكن تفهما بالكردية كانت تقولها بالعربية، كانت أمي عندما تترجم الكلمات تؤنث المذكر، وتذكر المؤنث، وعندما تستعصي عليهما معاني الكلمات كانا يستعينان بالإيماء.

وكان أحيانا زوجها يدخل وعلى ملامحه علامات الخجل فيسلم على أمي ويقبلني من خدي ويخرج دون أن يطيل البقاء. في الأعياد كانت أمي دوما تصطحبني لمعايدتها فكانت تضيفنا النبيذ والعنبرين في كاسات صغيرة، كانت تقول لي: لا تشرب كثيرا يا حنيف حتى لا تسكر، وكانت أمي تشرب النبيذ والعنبرين في تلك الكاسات الصغيرة كما لو كانت تشرب فنجان قهوة رغم أنها كانت تعود إلى البيت وتصلي، ولم يكن أبي يوبخها بسبب ذلك عندما كان يشم الرائحة منا، كانت تقول بأنه شراب طيب يجعل الإنسان منتشيا: أليس ذلك يا حنيف ؟

فأهز رأسي علامة بالإيجاب. وكان أبي أيضا له أصدقاء من المسيحيين في تلك المدينة، كان يزورهم في المناسبات وأحيانا أزعجه حتى يضطر ليصطحبني معه من أجل أن أعود محملا بالنقود والسكاكر والبسكوت والكليجا وببعض النشوة أيضا، كان في بعض الأعياد يأخذني إلى بيت صديقه / يعقوبو / مصلّح الأحذية الذي يتحدث الكردية كما لو أنه ابنها، ولم يسبق لي أن رأيته تحدث مع أبي بغير اللغة الكردية، كان يضع النبيذ في كاسات صغيرة على سفرة ويقدمها لضيوفه الذين يأتون

لمعايدته، فيعلّق أبي: والله يايعقوبو أنتم أنظف منا، نحن نمرر الفنجان الواحد على مائة رجل دون أن نغسله مرة واحدة.

وكنا أحيانا نمر على بيوت عديدة فأشعر بحرارة جسدي ترتفع، وينتابني نعاس شديد، وكان أبي يقول: إنه من النبيذ والعنبرين لا تشرب كثيرا يا حنيف، كان دوما عيد المسيحيين يقع ماقبل رأس السنة الميلادية بأيام وكان الطقس باردا ورغم ذلك كنت ألمح أبي أيضا يعبر عن أن الطقس حار جدا. وعندما كنا نعود إلى البيت نستلقي في نوم عميق ولا نصحو حتى المساء، كانت أمي تقول: لقد أثقلتما بالشرب.

كانت القامشلي الحافلة منفتحة مثل مدينة أوربية صغيرة، وكانت شوارعها تتألق بكل ألوان وثقافات وحضارات وأديان الناس من كافة أنحاء الأرض حتى أنه كان يوجد فيها على حافة نهر جغجغ بيت دعارة لعامة الناس تحت نظر وموافقة الدولة والأهالي، ولم يكن ذاك البيت يسبب إزعاجا لا حد، أذكر بأنه كان مطليا باللون الأبيض وكنا نحن الأطفال نمر أحيانا بجواره لنستمع قهقهات النساء ونرى الرجال الذين نعرفهم يلجون ذاك البيت، ولكن أتت ثورة السياسات لتقلب كل شيء على عقب وتخل بكل موازين البساطة والمحبة والتسامح بين الناس.

قالت وهي تضمه بقوة إلى صدرها وتداعب شعره: لقد شممت رائحة الشرق ياسيدي، مضيت تحت شمسه، وسبحت في مياهه، زرت بعض أقاربنا في الحجاز،

وزرت الأردن ومصر واليمن مع أبي عندما كنت صبية. إذا مضى الناس جميعا وفقما تخطط لهم السياسة فلاأحد يلقي السلام على أحد، ولكن لا يمضي الناس إلا خلف نداءات قلوبهم حتى لو تخلوا عن كل شيء وعاشوا في كهف منعزل.

لبثا في البيت ثلاثة أيام بلياليها دون أن يردا حتى على الهاتف وطرقات الباب المتلاحقة بعد أن أخبر خلات بأنه في رحلة لا يعلم متى يعود منها كي لا تقلق عليه.

بعد ثلاثة أيام خرج من عندها وهو كله شوق للبقاء وهي كذلك تتوسل إليه إلا ينقطع عنها. قبل أن يعود إلى بلاده أمضى معها يومين آخرين وعاد على أمل لقاء قريب آخر.

كان عندما يشعر بضيق يخرج إحدى صورها من الألبوم وينظر في تلك الملامح فيتبدد الضيق ويشعر بنشوة الحياة تسري في عروقه، وعندذاك لا يتردد من أن يهاتفها قائلا: إذا انتابك شيء من الضيق ياسيدتي ما عليك غير أن تتجهي إلى المرآة.

بعد ثلاثة شهور غلبه الشوق واستغل عطلة العيد مع إضافة ثلاثة أيام إجازة وسافر إليها، بوصوله إلى فرنسا لم يخبر أحدا من أخوته، سافر كاللصوص وهو يخاف أن يراه أحد صدفة. لم يذهب إلى مكان آخر، كانت تنتظره في المطار ليتجها على الفور إلى البيت. بوصولهما إلى البيت احتضنها وهو يقول: لقد جلبني الشوق إليك

ثانية ياسيدتي، الآن تأكدت بأنني لم أعد قادرا على العيش دونك، ومضى الأسبوع كأنه ساعة واحدة. بعد ثلاثة شهور أخرى تفاجأ بها تقول بأنها قادمة إليه لا نها لم تعد قادرة على الشوق، ومادامت قادرة على الحضور فلِمَ لا تحضر. لم يكن يصدق بأن إيدوميا كلها سوف تدخل بيته كما دخل بيتها، وأنها ستمضي الليالي في سمر معه، وسوف ينظر في عينيها مجددا ولا يفه بحرف، وتبتسم قائلة: لكن لماذا أنت ساكت ؟

يقول: لا نني لا أريد لا ي كلمة أن تفسد علي حالة الاستغراق في عينيك.

لقد تحول كل ذلك إلى واقع وراح يستقبلها في المطار وأمضت عنده عشرين يوما قالت بأنها كانت من أمتع أيام حياتها. قالت: تعرف يا حنيف بأن لا شيء في العالم يبرر قطيعة الإنسان عن الإنسان، لا تتصور كم كنت فرحة، وأظنني كنت أكثر الناس فرحا عند انهيار جدار برلين، أذكر بأنني كنت أزف التهاني إلى كل العالم من بيتي المغلق دون أن يسمعني أحد، لكن كان لدي حدس بأن العالم كله يسمعني، لا أخفيك بأن أجمل سنوات حياتي كانت هي تلك السنوات التي عملت فيها سائقة ترام، كان ذلك في محاولة مني لا تهرب من البيت ومن شبح الزوج الذي قضيت معه أبأس سنوات عمري، كنت أقود الترام وأنا حامل، لكنني كنت سعيدة لا نني كنت وسط الناس، وكنت كائنة تقدم شيئا لمجتمعها، الأمر الآخر الذي أقوله لك يا حنيف هو أن كل ما فعله جون كندي في حياته لا يهمني على قدر ما تهمني حميمية

علاقته بمارلين مونرو. كانت تتحدث وبين لحظة وأخرى تقول: ألم تضجر من ثرثرتي ؟ فيقول: وهل يضجر الإنسان من تغريد بلبل، أنت تلخصين لي كتبا كان بودي قراءتها، تلخصين لي عشرات السنين من الحياة في أيام قليلة، إذا ضجر الإنسان من المعرفة ومن شدو البلابل، والتأمل في عمق الجمال لا يعزيه شيء آخر بعد ذلك.

كنت تقولين لي بأن حياتنا معا تكون رحبة أكثر، تتذوقين الجنس، تتذوقين الطعام والشراب، تتذوقين الاستغراق بالنظر إلي، تتذوقين لذة الكلمات التي تقولينها لي والتي أقولها لك.

هذه الأشياء تعلمتها منك ياسيدتي، ومن للإنسان غير الإنسان حتى يتعلم منه. وإذا ضجر الإنسان من الإنسان فلمن يكون حنينه. أنت بالنسبة لي تشبهين الكوكب، يتحول الإنسان في بعض مراحل تطوره وحكمته إلى كوكب ولذلك عندما يغيب هذا الكوكب من الحياة تشعر البشرية كلها بأن كوكبا مضيئا ما قد انهار، ولا تكتفي أن تشعر بالحزن عليه، بل ينتابها شيء من الخوف أيضا. مضت الأيام مسرعة ثم عادت. شهور ستة مضت على عودتها حتى بدأ يشعر بأن تلك العلاقة تتسع رحابة في صدره كلما ابتعد عن إيدوميا، وحتى يحافظ على روح تلك العلاقة فعليه أن يكون أكثر شجاعة ويكون بعيدا عنها.

هاهي روهات تأتي بعد كل تلك التجارب، هاهي تأتي لتقول له: ولكنني أنا مَنْ كنت تنتظرها يا حنيف، أنا ولا أحد غيري، كل تلك النساء اللواتي تعرفت بهن كن يمهدن لظهوري.

يحملها ويضعها على كتفيه كما لو أنها طفلة صغيرة، ثم يرفعها إلى السقف ويتلقاها، يحملها على ظهره وهو يقول: سوف أجوب بك العالم.

في المساء أعد حقائبه وهو يشعر بمتعة السفر كما لو أنه لم يشعر بها قط، كما لو أنه سيسافر لا ول مرة في حياته، واتجه إلى الكراج ليرى عرس الباصات الواقفة التي تنادي بأحب أسماء بقاع الأرض على قلبه، وأقربها إلى نفسه: حسكة – قامشلي – مالكية – عامودا – رأس العين – درباسية. ليمد خطواته إلى البولمان المتجه إلى القامشلي دون أن يخبر أحدا بذلك، دون أن ينتظره أحد في الكراج حتى يتمكن من العودة إلى أحضان المكان لوحده، دون أن يشغله أحد من الاستمتاع باللحظات الأولى للنظر في كل شيء هناك، في الطرقات، في المحلات العامة التي تفتح أبوابها للتو، في النساء القرويات اللواتي يحملن اللبن على رؤوسهن. وهو لذلك اختار ساعة السفر مساء حتى يصل صباحا وتكون الشمس أمامه مشرقة وتكون القامشلي التي دوما يرى بأنها وردة دائمة الفوحان في بدء إشراقتها الصباحية. في كل المرات السابقة كان يشعر فيها أنه بحاجة ليهرب من ذاته ويتغرب عنها قليلا، الآن يشعر بأنه قادم من غربة بعيدة نحو ذاته، إنه رحيل نحو الذات المفقودة، رحيل

من غربة الروح والجسد إلى حيث مسكن ومأمن وملاذ الروح والجسد. وقفزت صور الطفولة إلى ذاكرته بقوة، فهاهو يجلس مع أخوته على الدكّة حول سفرة يقشر أبوه فيها البطيخ الأحمر، ثم يضع السفرة قليلا على السطح ليبرد البطيخ، وهاهو يأخذ إبريق الشاي إلى دكان خاله / جمبلي / بائع القماش الذي يفصل بينه وبين البيت شارعان وبطلب خاص من أمه، فيرى أحيانا ولديه الصغيرين هناك، هيوا، وكولان. جمبلي بملامحه الكردية الصارخة يمسك بالمتر ويقيس الأقمشة للنساء ويستعين في عمله حتى بفمه وهو يضع أطراف الأقمشة في فمه، وما إن يرى ابن أخته حاملا الشاي حتى يمد يده إلى الدخل فينقذه ربع ليرة، فيهرع فرحا ويهرع معه ولدا خاله حتى يصل إلى أمه ويقول: خالي أعطاني ربع ليرة. ويهرع إلى دكان تيريش المجاور يشتري بهذه الثروة مايريد. وهاهي أمه تتحايل عليه حتى تمسك به وتغريه بقطع نقود وسكاكر حتى تغسل رأسه في طشت معدني صغير، تنشفه وتفتح البقجة تلبسه ثيابا نظيفة وتقول له: الآن يا حنيفي أصبحت أميرا، وتطلق سراحه.

في الطريق وعند الساعة الحادية عشرة ليلا قطعت روهات خياله وهي تتصل به وتسأله عن سبب عدم إجابته على الهاتف الأرضي لا نها اتصلت مرات عديدة دون أن يجيب على الهاتف الذي يرن، صمت للحظات دون أن يعرف ماذا يقول لها، هل يقول بأنه خارج البيت وأنه قادم إليها، وما هي إلا ساعات قليلة ويكون بالقرب

منها. إنها روهات التي أنسته العالم كله لينشغل بها، لتكون شغله الشاغل، إنها المرأة الإستثنائية التي ظهرت لتقول له: الحياة اقترنت بي. المرأة التي يخفق قلبه حبا وشوقا كلما يسمع نبرات صوتها. وأدرك للتو بأن المرأة التي يحبها هي المرأة التي يحب أن يسمع حديثها، وعندما يتحدث معها لا يملك غير أن يتحدث بحب. كل الكلمات التي لا تحمل الحب تغيب عن باله تلك اللحظات ولا تحضر معها إلا كلمات الحب التي تطرب القلب والعقل والحواس. وبعد هذا الصمت وسؤالها المكرر قال بأن الهاتف به بعض العطل وغدا سوف يتصل بالشكاوى لا صلاحه. كان قلبه يتطاير طربا وهو لا ول مرة يكذب عليها، ويدرك بأنها لو علمت لطارت فرحا، وللبثت حتى الصباح تتصل به بين دقائق وأخرى لتقول له: ولكن أين وصلت الآن.

كل مشاعر الحنين بدأت تستيقظ في أعماقه وكأنها تستيقظ لا ولى مرة وعندها أدرك أن الغربة تبقى غربة سواء كانت داخل البلاد أو خارجه، فهو يشعر بأنه كان في أبعد بقاع الأرض وللتو يعود إلى مدينته قاطعا آلاف الأميال. الليل يمضي وهو لا يرف له جفن. هل سيراها، وما الذي سيقوله لها. كيف سيقول لها بأنه بات على مسافة دقائق منها، وهي ما الذي سيكون موقفها عندما تراه لا ول مرة في هذه المدينة، وعندها ستدرك بأنه جاء إليها، جاء إليها لا ن شوقه غلبه. وستكون سعيدة بحضوره، ستكون أكثر ثقة ويقينا بعلاقة الحب القوية التي ولدت بينهما. كم من

لحظات الفرح بثتها إلى فؤاده وهو في ذروة اليأس، كم من أمسيات طار فيها فرحا وهو يستمع لصوتها العذب ويتمتم: ليالي الاستماع لصوت روهات هي سادات الليالي. وأنت يا حنيف لقد جبت كل بقاع العالم من أجل المعرفة والشهرة، ألا تعود إلى مدينتك من أجل الحب، من أجل المرأة المستقبل التي لبثت طوال عمرك تتخيلها وتبحث عنها في كل عواصم العالم دون أن تجدها، المرأة التي مابرحتْ مخيلتك لحظة واحدة.

في الثامنة صباحا وقف الباص في كراج القامشلي. ولا يدري لماذا شعر بأنه ولد للتو، أنه سقط من رحم أمه للتو ويمشي على الأرض أول مرة، وأنه يفتح عينيه على الحياة الحقيقية للتو. أحس بأنه كان في سجن وخرج منه إلى انطلاقة الحياة وشمسها وليلها ومساءاتها. علت غصة إلى حنجرته، نزلت على إثرها دموع ساخنة من عينيه أعادت على فؤاده نشوة طفولة مفقودة، حينها عرف معزة المكان وغلاوته وأنه أدفأ من حضن الأم، إنه الأم الدائمة التي لا تموت، وأن أي كائن دون هذا الحضن يبقى يراوده شعور باليتم مهما بدا له غنى المكان الجديد الذي لا تشعر روحه بأي انتماء إليه، وأنه كان قاسيا على نفسه خلال كل تلك السنوات التي عاشها بعيدا عن هذا الدفء، أو ليقل بأنه كان أنانيا بعض الشيء حتى يستطيع أن ينسى وقع الزلزال الأول عندما اختفت زهرة وتركته في عالم موحش غريب. الآن

وبعد كل تلك الرحلة الطويلة يدرك أنه لا يبدد الشعور الأعمق بالغربة غير العودة إلى هذا الحضن الدافئ.

باتت هذه الدموع تلفت أنظار الركاب الذين نزلوا معه وهم يحدقون فيه بدهشة، كان يحدثهم بلغة هي الأحب إلى قلبه لا نها اللغة التي فتح عينيه عليها. اللغة الأولى التي علمته الأبجدية، ومكنته للتواصل اللغوي مع الآخرين.

أشار لسيارة كي توصله إلى بيت أبويه، ذاك البيت الذي بات يتداعى في ذاكرته مشهدا مشهدا وهو يتقدم إليه خطوة خطوة. ولكن قبل ذلك شده حنين عجيب لمشاهدة كل تلك الذكريات فأشار للسائق أن يمضي قليلا في شارع القوتلي،، ثم يمر من فوق جسر نهر جغجغ، ويتجه نحو هلالية، ويعرج إلى علي فرو، وأربوية، والوسطى، والكورنيش، وقدور بك، وطي، والبشيرية، وعنترية. ولا يفوته أن يتجه صوب / جامع قاسملو / ليتأمله قليلا ويسترجع كيف أن ذاك الطفل صلى أول صلاة مع أبيه في هذا الجامع، يومها علّمه أبوه كيف يتوضأ، وكيف يقلّد المصلين في الحركات حتى ولو نسي ما يقوله في الصلاة. وهو يتأمل كل هذه المناظر البهية والسيارة الصفراء تمضي به ببطء يشعر أن ثمة استباحية للجمال ترتسم أمام عينيه وفي خصوبة خياله. يراوده شعور بأن قامشلي هي ملك شخصي له، ملكه بمافوق أرضها وما تحتها، ملكه بحدائقها وشوارعها وأحيائها وهبوب نسيمها وزقزقة عصافيرها وكلابها الشاردة، بمهابيلها وقديساتها وعاهراتها. وهوعائد يتفقد ملكه بعد

غياب، يتفقده ركنا ركنا، وجها وجها، حديقة حديقة، عصفورا عصفورا، تاركا لنفسه حرية التفقد حيث يشاء.

بعد تجوال دام نحو ساعتين في السيارة والسائق دَهِش من هذا الراكب الغريب من نوعه، وهويستجيب لمطالبه بهدوء دون أن يضايق نفسه، طلب إليه أن يتجه نحو البيت حيث المحطة الأخيرة. أمام الباب وقفت السيارة ومرة أخرى شعر بأنه في حلم. نزل من السيارة والتقت عيناه بعيني أبيه / سوار / الذي بدا له في تلك اللحظة وهو يحمل عصاه الحكيمة بيده أمام الباب كزاهد بوذي أو ناسك زرادشتي. هرع إلى حضن أبيه مع مد الخطوة الأولى من السيارة وبات يقبل يديه والغصة لا تدعه يفه بحرف واحد، عندذاك خرجت أمه / خفشي / من الحوش وهي تنادي باسمه كأنها في حلم وأخذته في حضنها وهي تبكي، من طرف آخر هرعت أخته العانس / شهيناز / من الحوش وهي تفرد جدائلها الشقراء وتزغرد. أصبحت ساحة البيت كأنها عرس بامتلاء الجوار فيها. بعد قليل دخلوا جميعا وبدأ الجوار يقبلون لزيارته ويتبادلون معه الذكريات التي حضرت بكل قوتها وحرارتها. لبث ذلك حتى الظهيرة فخلا البيت ليتغدى ويأخذ قسطا من راحة، عندذاك تناهى رنين هاتفه المحمول، وجاءت نبرات روهات كأنها تقف جواره: ألم تصلح الهاتف بعد.

توقف قليلا وشرد فيما سيقول، وخرجت عبارة تلقائية من فيه دون أن يعنيها: المشكلة أنه لا يقبل أي عملية إصلاح.

قالت: أكثر من عشر مرات وأنا أتصل بك دون أن يرد أحد.

: لا يرد لا نني قريب منك ياروهات.

: الآن تعرف بأنك قريب مني، ياله من اكتشاف.

أحس بأنه فقد التركيز على اللغة التي يتحدث بها، تاهت العبارات، وبعد صمت خرجت منه كلمات غير متناسقة وركيكة: بل الآن أنا قريب منك روحا وجسدا، على مسافة دقائق حتى يرى أحدنا الآخر، الهاتف لم يكن مفصولا، كنتُ في طريقي إليك.

: ماذا تقول يا حنيف، أتمزح، وهل تظنني أحتمل مزاحا كهذا.

: دقائق قليلة هي التي تفصل بيننا ياروهات، الآن أنا في القامشلي بالفعل.

هل ستراه عيناك وجها لوجه ثانية ياروهات، إنه كالفارس الذي تتبدد عنه الغيوم بعد دهر. وأخذت تسترد ملامحه في مخيلتها: وجه مستدير هادئ عليه ملامح الاستقرار وكأن صاحبه استفاق للتو من نوم عميق، يميل بقامته إلى الطول رغم أنه ليس بالطويل البائن، شعره يختلط ببعض بياض يضفي رونقا وشبابية على هيأته، يبدو بأنه يحرص شديد الحرص للحفاظ على هدوئه لا ن حالته النفسية تظهر على سمات وجهه وكذلك على نبرات صوته التي على الأغلب تصدح من حنجرته متلألئة كتغريد كروان.

عندئذ لم يكن أمامها إلا أن تصدق ما تسمع، وتواعدا أن تأتي صبيحة الغد من المالكية ليلتقيا في مطعم قبالة المطار، وهو المكان الأنسب للقاء حميمي كذاك.

الصباح، وأي صباح ذاك الذي سيأتي بعد دهر، وهل سيأتي الصباح، لم يكن يصدق أن الصباح سيأتي وأنه سيذهب للقائها.

أشرقت الشمس وهو مايزال يشعر بارتباك عندما تقع عيناه عليها لا ول مرة، أفكار وأفكار تأخذه وتعيده، ولكن لا بد للنهوض من الفراش والاستعداد لهذا اللقاء مع هذه المرأة التي بدت أسطورية.

خرج من البيت مشرقا وهو يقول لا هله بأنه سوف يقضي أمرا هاما وسيعود عندما يقضيه.

تذكر كم مرة قالت له في عز الشوق: مد يدك نحوي ياسيدي، وسأمد يدي نحوك لعل المعجزة تحدث ويمسك أحدنا بيد الآخر ويجره إليه. وكان يمد يده وتمد يدها دون أن يفقدا الأمل بأن معجزة كتلك علّها تحدث ويجر أحدهما الآخر ولو للحظات فقط، وينتهي مفعول المعجزة. وصل باب المطعم وعلامات الإرباك ماتزال بادية عليه وكأنه يلتقي امرأة لا ول مرة، وكأنها لم تكن طالبته التي نهلت منه الثقة وقوة الشخصية ذات يوم على مقاعد الدراسة.

بدخوله إلى باب المطعم عند الساعة العاشرة والنصف صباحا وقعت عيناه على فتاة رشيقة القوام جالسة قبالة الباب، وما إن وقعت عيناها عليه حتى انتفضت من كرسيها وهرولت لا ستقباله، أدرك بأنها هي روهات. دنا وهو ينظر إليها نظراته المستفيضة الأولى ودون أن يدري لكمت قدمه بكرسي فوقع بعض الشيء على الأرض، هرعت إليه بكل ما ملكت من سرعة وحملته، ثم تقدم بعض العمال يعتذرون له عما حدث، لكنه أدرك بأنه كان ينظر إليها دون أي شيء آخر، كان ينظر دون أن يدري بأي خطوة يخطوها، كانت نظرات الاكتشاف الأولى التي تحولت فيها روهات من حلم إلى حقيقة، من تصور في الخيال إلى واقع ملموس. ولم تملك نفسها من مصافحته بيديها بكل حفاوة ومن ثم تقبيله على خديه قائلة: حمدا لله على سلامتك يادكتور، كأنني في حلم، أعذرني ياسيدي فإن القبلة خرجت رغما عني. / إن فينا ظمأ يتعذر إطفاؤه / هل حقا أنت هنا وأي محظوظة أنا ليتحقق لي كل هذا، كنتُ دوما أسيرة أنني أكابد حنينا إلى ما لا يُطال، وأي مفاجآت سعيدة هذه التي تخفيها لي الحياة، هل حقا أنت معي الآن في قلب القامشلي يادكتور، أكاد لا أصدق ما أرى. واغرورقت عيناها بدموع سخية وهي تبرك معه على مائدة واحدة.: ولكن لماذا أخفيت عني بأنك قادم، لماذا حرمتني من أعظم ساعات كنت سأمضيها قلقة في انتظار أن تصل، وياله من قلق مبارك ذاك الذي يكون في ساعات مشرقات كتلك ؟!

مهما كان الحديث معك في الهاتف حميميا ومعبرا فإن هذا لا يغني أبدا عن التحديق في قسمات وجهك وأنت تتحدث، كنت تشرح المحاضرة وكنتُ أنظر إليك وأصغي بإنصات فأستخلص من حديثك أكثر مما لو كنت أسمعك على دون أن أنظر إليك، ولذلك فإن الكلمة التي تقولها الآن وأنا أنظر إليك فإنها تفيض بالمعاني الغزيرة أكثر من كل ذاك الكلام الذي قلته لي عبر الهاتف. فوضع كفه على كفها وهو يشعر بذات الشعور في الإصغاء إليها وهي تتحدث وهو ينظر إليها ويحدق في وجهها الذي يشده إلى سبحانية تخصه وحده دون أي وجه من الوجوه التي التقاها.

عندذاك تقدم أحد الشبان حاملا إبريقا من الشاي الساخن، أراد أن يضع السكر في الكأسين ويصبهما فمنعه حنيف قائلا بأنه هو الذي سوف يصب الشاي، فمدت روهات يدها إلى علبة السكر قائلة: هل تريده حلوا يادكتور أم وسطا.

أريده بدون سكر. قال وهو يكتشف معالم وجهها بنظرات كأنها شمس تبدد بقايا ظلام عن حديقة.

سكبت لكأسها ملعقتي سكر وصبت له كأسا كما شاء، فمد يده إلى سبابتها ودسها قليلا في كأس الشاي قائلا: أظنه أصبح حلوا بما فيه الكفاية. ابتسمت روهات خجلة وتسرب في تلك اللحظة شعور إليها عن حجم حبه لها.

روهات بكل عراقتها وهي تشرق بروح البساطة الكردية وتتحدث بهذه اللهجة التي تسحرك أينما كنت، اللهجة / الآشيتية / العذبة، ألا تذكر يا حنيف أنك كنت تصغي طويلا لخلات وهي تتحدث بكل تفاصيل هذه اللهجة دون أن تتلكأ بحرف واحد منها، كانت تتحدث وأنت تستمتع بتلقي إيقاعات اللغة كما لوكنت تستمتع بأعذب موسيقى سمعتها في حياتك، كنت وأنت على كل ذاك البعد تتخيل بأنك جالس في إحدى أحياء قامشلي، اللغة كانت تفوح برائحة المكان، وكان لها حضور أقوى من حضور المكان ذاته. نبي أيضا كان يتحدث بهذه اللهجة ولكن أبدا لم تكن مؤثرة وحاملة للروح الكردية كما كانت تخرج كحبات اللؤلؤ من فم خلات وتنشر أريجها في خلاياك، كان يبدو لك أنه ليس بوسع أحد أن يتغنى بهذه اللهجة البالغة العذوبة مثل المرأة الغارقة في كرديتها، كان الصوت الأنثوي يضفي جمالا وسحرا عجيبا على تركيب الأحرف كانت تتحدث وكأنها تدندن بأروع أغنية عرفتها البشرية.

وهاهي المرأة الأقرب إلى قلبك يا حنيف تترنم بهذه اللهجة وأنت جالس في عمق سحرية المكان وتستنشق رائحته، إنها المرأة الحبيبة التي ينشرح قلبك لا ول مرة لها، أجل إنها الحب الذي استطاع أن يزلزلك ويجرجرك إليه بكل هذه القوة، أجل هذه هي روهات يا حنيف، إنها أجمل من أي تصور كان في مخيلتك عنها، وحديثها الآن أنعش من أي حديث كان يأتي من بعيد. الآن تنظر إليها وهي تتحدث، وتنظر

إليك وأنت تصغي. إنه الواقع الذي كان يخفي كل هذه المشاعر الجديدة التي ولدت نحوها بكل هذه النبضات الجديدة.

وأين هو مناف، أين هي مهجة ليريا هذا الإبداع الإلهي في هذه الملامح المدهشة. عندما لا تتحول المرأة إلى قديسة بالنسبة إلى زوجها، وعندما لا يتحول الرجل إلى قديس بالنسبة إلى زوجته فإن زواجهما يكون فاشلا حتى لو عمّر مئة سنة. هاهي روهات ترسم لك معالم المستقبل وتضع كفها في كفك لتحلقان معا في فضاء حب لا نهاية له.

يقول وهو مستغرق بالتأمل في ملامح وجهها: لم أكن أتصور أن وجهك يشرق بكل هذه الملامح الكردية العريقة ويحفظ كل ذاك الإرث إلى هذه الساعة، الآن ازددت يقينا أن البلاد تجري في عروق أبنائها أكثر مما تجري في أي بقعة أرض مهما حملت من اسم، الإنسان يحمل ملامح بلاده أكثر مماتفعل الجغرافيا وهو يحافظ على هذه الملامح ويتوارثها أكثر مما تفعل أي أرض. الحفدة هم الذين يحملون أوطانهم بكل إرثها ومجدها، يتوارثونها ويحافظون عليها أكثر من أي تراب.

كردستان كلها تنبض في هذه اللحظات أمام ناظري وروحي، شمسها تشرق على الأكراد الذين يخرجون مع إشراقتها الأولى إلى أعمالهم، يبدو لي إنني في هذه

اللحظات أحج كردستان الحج الأول، أطوف جبالها الشامخة، وأوديتها الخصبة، وينابيعها العذبة، وبساتينها الثرية.
على شامتك هذه ترفرف أعلام جمهورية مهاباد، الدولة الأكثر سكانا والأقصر عمرا، على جبهتك تزهو بذور الحضارة الميدية بكل عراقتها وامتدادها، ويتلألأ الإرث الميتاني المجيد في نبعَي عينيك كأنه وليد اليوم. وهناك بالقرب من خضرة بستان فمك الوردي تنهض إمارة بهدينان، وعلى الضفة الأخرى تجاورها إمارة بوطان، وهناك في غمام جزيرة الأهداب تبدو لي من بعيد إمارة هيكادي. ولا أشك للحظة أنني أرى مياه كردستان العذبة تسري رقراقة بين جداول أصابعك، وأن أشجارها العامرة ترفرف على غصونها كل ألوان الطيور بين خصلات شعرك، وأن نسيمها العليل تعزفها نبرات صوتك أروع موسيقى أنجبتها الطبيعة، كردستان تمشي بقدميك المباركتين على فضة الأرض.

تدندن وهي تبتسم بكل إشراقة الاحتفاء بأقرب مخلوق إلى قلبها: أبي دوما يدلعني في البيت بـ: روكي، بقي هذا الاسم مقترنا بي ولا أحد من أخوتي أو من الجوار يقول روهات، لكن أمي تحب وهي تناديني أن تقول: روكامن. أذكر أنها منذ سنوات طفولتي الأولى كانت تناديني: روكامن، تقول: أنتِ حصتي، أينما تتزوجين فسآتي إليك لا نني لا أستطيع العيش بعيدا عنك ياروكامن.

عندما كنت طفلة كنت دوما أراه يسهر مع المذياع يبحث عن أخبار الأكرد، كان ينام جوار أمي في الفراش والمذياع مفتوح حتى وقت متأخر، وإن لم يجد الأخبار التي تعنيه يترك المذياع على أغنية كردية وأحيانا يردد كلمات الأغنية بصوت مرتفع بعض الشيء يسمعه جميع من في البيت، كلما كنت أستيقظ في الليل كان الصوت يأتي من ذاك المذياع القديم الذي تحول بالنسبة لي إلى شيء من إرث الماضي يخص أبي وحده، ويخص حضوره في هذا البيت.

وما يزال حتى الآن يفضل سماع الأخبار والأغنيات من ذات المذياع المحبب لديه، يقول لنا دوما بفخر ونحن نجتمع حوله في بعض الأمسيات: لو لم يخلقني الله كرديا، عندها لكنت تمنيت فيما لو أنه خلقني كرديا. ولذلك أصر أن يسمي جميع أولاده وبناته أسماء كردية.

الابن الأول أسماه: نوبهار، ثم أشرقت أختي مهاباد، وجئت أنا، ثم أعقبتني آخر العنقود ميديا.

يردد لنوبهار أمامنا الحكمة الكردية: / كن ديكا ليوم واحد أفضل من أن تكون دجاجة لسنة كاملة /.

وماتزال أمي تحتضنه بعض المرات كما لو أنه مازال طفلا وتتمتم على مسمعه الترنيمة الكردية التي تتمتمها الأم وهي تهدهد طفلها الوحيد المدلل حتى ينام:

أفديك سبع مرات
أجلس تحت سبع أشجار
أزوجك بسبع زوجات
واحدة مزينة بالأقراط
وأخرى تحافظ على الذكريات
واحدة تهتم بالجود والعكة
واحدة للدفء والحنان
واحدة لهناء الأكل والسهرات
و أخرى تشاركك مضجعك
و الأخيرة لهدوء البيت ونظافته.

فنضحك جميعا بحميمية ونشعر بروعة دفء العائلة،

لايمكنك أن تتصور مدى محبته لا مي، أحيانا ينزل إلى السوق ولا نعرف كيف يجلب لها سلة عنب في عز شباط عندما توحي له بأنها تشتهي العنب، ومرات يخرج ليصطاد لها الحجل، وعندما يعود يناولها الصيد ويقول: لوطلبت كوجري مني سربا من الحجل ودالية عنب لما تأخرت عنها.

حتى الآن أحيانا عندما يحلق ذقنه في حديقة البيت يعكس المرآة على وجه أمي فتفهم ونفهم جميعا بأنه أرسل لها قبلة. لا يذهب إلى مكان إلا ويأخذها معه، وأمام الطرقات العامة يمسك بيدها ويعبر بها الشارع بعد أن تعدّي السيارات، حب أبي لا مي يُضرب به المثل في كل منطقة ديريك، يقولون في هذه المنطقة عن محبة عميقة بين رجل وامرأة: إنه كمثل حب قره داغ لـ كوجري.

دوما يحب أن يلفظ اسمها ولم يسبق لي أن سمعته يناديها كما يناديها الجميع: ديا نوبهار.

يقول لها: كوجري، يلفظ الاسم بجمالية كما لو أنه يأكل حلوى، ولم يسبق لي أن سمعتها تناديه كما يناديه الجميع: بافي نوبهار، تقول له: قره داغ.

تلفظها بشموخ وكأنها تقف أمام جبل، لا أظن أن أحدا بمقدوره أن يلفظ هذا الاسم بكل تلك الجمالية كما تلفظه أمي، تخرج حروف الاسم من فمها كحبات لؤلؤ.

بعد لحظات ابتسمت وهي تضيف: لا أخفي عنك ياسيدي بأنني ورثت عن أبي هذه المشاعر، ويا للهيب تلك الذكريات الجميلة في تلك المدينة الأنيقة، عندما كنت أمضي في أروقة الجامعة، كنت أشعر بأنني أشرق على قدر ما أنا كردية، كنت أدب بخطواتي بين زميلاتي بثقة على قدر إحساسي بهذا المعنى الكبير، وكان اسمي يعزز في نفسي هذه المشاعر، في مناسبات التعارف بين الزميلات الجديدات في الجامعة كنت أضيف: كردية.

وكان هذا الانتماء يزيدني فخرا.

تتحدث وتنظر إليه، وهو يصغي ويتأمل الجمالية التي ملأت المكان.

ثمة شعاع يسطع من وجهها كالنور، ويالهذا الشموخ الذي كالجودي.

يمضي الوقت بهما دون أن يدريا، يتناولان الغداء والحديث الدافق يجر الحديث ويطيب الجلوس، كأن لا حديث بعده، كأن لا جلوس بعده، كأن لا لقاء بعده، كأنهما في حلم لا يريدا الاستيقاظ منه.

بعد تناول الغداء تمتمت له: أنت ابن الجزيرة يادكتور وتعرف أن مَن يطأها ولا يزور / ديريك / وعين ديوارها كأنه لم يأتها، زيارتك هذه لن تكون زيارة مكتملة إن لم تقبل دعوتنا غدا على الغداء وتنظر إلى جمالية نهر دجلة.

يقول أبي بأن الذي لم يسمع لهجة بوطان فإنه لم يسمع اللغة الكردية قط، إنها لهجة قريش الأكراد، منذ مدة طويلة وأنت بعيد عن دفء هذه اللغة وحميمية بيئتها.

– كنا أحيانا نقضي عيد نيروز هناك، في تلك الخضرة الساحرة، أما زالت الحوادث تقع في ذاك النهر.

ذاك النهر الذي يسميه الناس عندنا / النهر الكبير / شهد الكثير من الحوادث المؤسفة لشبابنا الذين كانوا يقطعونه لدخول تركيا، ولكنها أصبحت أقل مما كانت عليه من قبل، كل شيء في العالم تغير.

عند العصر نهضا ليخرجا من المطعم فعادت تسأله: لكن لم تقل لي يا سيدي لماذا حرمتني من ساعات الانتظار العظيمة تلك وأنت تأتي إلي ؟!

قال وهو مستغرق بالنظر إلى ربيع مكتمل في وجهها ويشعر أن روحه تحلق في فضاء عذوبة لا تنتهي: كي لا تسهري يا قلبي حتى الصباح بانتظار وصولي، كنتُ واثقا بأننا سنلتقي اليوم.

ضحكت وقالت: وهل تظن بأن السهر وحده كان سيكفي، كنت سأفعل ما بوسعي حتى أتصل بالسائق هاتفيا وأقول له: مهلا أيها السائق الوديع، لتكن على حذر، مهلا فأنت تحمل في حافلتك السحرية هذه رجلا استثنائيا، مهلا أيها السائق حافظ عليه كما تحافظ على عينيك.

لا تلتفت يمنة ويسرة أيها الرجل الوديع، وإن لم تكن قد نمت جيدا ويغلبك النعاس، أوقف العربة قليلا على حافة الطريق وخذ قسطا من نوم.

لاتدخن كثيرا، لا تحتس الشاي كثيرا كي لا يلهك شيء عن الطريق، لا تتسابق مع السيارات كثيرا، كن في غاية الحذر وأنت تمضي كي توصله لي بسلام.

كنت سأنتظر منذ المساء في الكراج إلى أن يصل الباص، أقدم هدية ثمينة للسائق الذي أوصلك إلي بأمان، وأطير بك إلى بيتنا قبل أي مكان آخر وأنا أقول لا هلي: هذا هو الرجل الذي منحني إجازتي الجامعية، هذا هو الرجل الذي منحني إجازة الحب.